المشرق

اكتشاف اليسوعيين للنيل الازرق

نبذة تاريخيّة للاب موريس شان اليسوعي مدرّس اللغة القبطيّة في المكتب الشرقيّ

كان دخول اليسوعيين الى الحبشة اوَّلاً سنة ١٥٥٤ في عهد النجاشي قلاوديوس (١٥٤٠—١٥٥٧) . وما لبثوا بعد زمن قليل ان اكتسبوا ثقة الاهلين بغيرتهم وتفانيهم وانعشوا فيهم روح الايمان المسيحي كما قبلوهُ من موارده الصافية في ايّام القديس اثناسيوس . وكان الملك يجلّهم ويصغي الى رأيهم وكذلك الشعب كان يتقاطر الى استماع تعاليمهم ويكرمهم كاصفياء الله . لكنَّ الاكليروس القديم خاف على سطوتهِ وتصدَّى لما كتهم واضمر لهم السوء. على انَّ هذه المقاصد الخبيثة لم تأتِ بنفعولها الّا بعد زمن في عهد الملك فاسيلادا فلمَّا كانت السنة ٦٣٢ جاء الحبش « ابونا » (اي اسقف) جديد من الاسكندريَّة وكان آلى على نفسهِ ان يخرج المرسلين من بلاد النجاشيّ فنفخ في قلوب الحبشة ما كان في قلبهِ من البغض وتعقَّب المرسلين مع المرتدّين الى الكنيسة الرومانيّة حتى استأصل شأفتهم . واستشهد في تلك الاثناء كثيرون من اليسوعيين وغيرهم وأُقفلت ابواب الحبشة في وجه دعاة الدين الكاثوليكيّ

وكان اليسوعيّون مدَّة اقامتهم في الحبشة مع قصر الزمان تولّوا اعمالاً مشكورة لا يزال العلماء يذكرونها باثناء الطيّب . فمن ذلك عدَّة تآليف صنّفوها في تعريف تلك الجهات النازحة وآدابها واحوالها السياسيّة كما كان دأبهم في كلّ البلاد التي يقدمون عليها للتبشير فيخدمون العلم والدين على سواء . ومما يستحقّ الذكر من هذه المصنَّفات تاريخ الحبشة للاب بايز (١٥٦٤—١٦٢٢) وثلاث رسالات مطوَّلة

للاب بارادو (١٥٧٢–١٦٣٣) تتضمَّن الواحدة تاريخ مدينة عدن. ومنها تاريخ واسع للاب دي أليدا (١٥٨٠–١٦٤٦) وكتاب بعثة الحبش للاب النفس منداس (١٥٧٩–١٦٥٦) كتبا في اللغة الحبشيَّة. وقد اخذت ايدي الضياع كثيراً من هذه الآثار فبقي منها النزر القليل كمختصر تاريخ الاب دي أليدا للاب تيلاس كتبهُ سنة ١٦٦٠ وتاريخ الاب منداس الذي طُبع في اللاتينيَّة سنة ١٦٩٢. ويوجد قسم آخر ليس باليسير متروياً في زوايا المكاتب لا يزال ينتظر رجالاً من ذوي الهمَّة ليستخرجوه من دفائنهِ كما فعل حديثاً المسيو كنتي روسيني واستيڤاس بيريرا اللذان نشرا بعض شذور من هذه الكنوز الادبيَّة (١

امَّا سبب اهمال تلك الآثار الثمينة فانما كان قلَّة المنقطعين لدرس اللغة الحبشية لانَّ بلاد الحبشة كانت تُعَدّ في الاجيال السالفة في جملة الاقطار الهمجيَّة التي ليس من وراء معرفتها فائدة تُذكر. فلمَّا دخل اليسوعيُّون انصرفت اليها الافكار واخذ العلماء في درس آثارها لكنَّ هذه الهمَّة ما فتئت ان كبا زندها وتقلَّص ظلُّها بعد نفي اليسوعيين من مملكة النجاشيين واضحت الدروس الحبشيَّة نسياً منسياً الى ان توجَّهت ثانيةً انظار اوربَّة الى تلك البلاد بعد ان عاد اليها ثانيةً في اواسط القرن السابق المرسلون الكبوشيُّون واللعازريُّون وطافها بعض ذوي المدارك السامية كالمسيو دي أبادي وغيره. فرجعت الدروس الحبشيَّة الى زهوها ودخلت في جملة اللغات المدرَّسة في الكليَّات الاوربيَّة

وممَّن اشتهروا هذه المدَّة الاخيرة بمنشوراتهم الحبشية حضرة الاب بكَّاري اليسوعي الروماني فانَّهُ باشر في طبع مجموع واسع يشمل عدَّة مجلَّدات يضمّنها كثيراً من تآليف الآباء المرسلين الدينيَّة والادبيَّة والعلميَّة التي تمكَّن من اكتشافها في خزائن الرهبانيَّة اليسوعيَّة ومكاتب الدول وها هوذا قد انجز من ذلك مجلَّدين اقبل عليها العلماء برغبة عظيمة ووجدوا فيهما دليلاً قاطعاً على همَّة المرسلين القدماء الذين رفعوا حيثما حلُّوا لواء العلم والدين لم يفصلوهما البتَّة وهما كفرسي رهان في حلبة المدنية .

١) وقد نشر حضرة الاب انطون ربَّاط فصلاً من تاريخ الاب أليدا في استشهاد الاب المكرَّم ابراهيم جرجس الحلبيّ الماروني (Documents pour servir à l'histoire du Christianisme en Orient T. I.)

*

وقد اطّلعنا نحن ايضاً على هذه الآثار الحديثة الطبع فتحقّقنا انَّ للمرسلين فضلًا آخر كان البعض انكروهُ عليهم وهو سبقُهم الى اكتشاف النيل الازرق.

وكان القدماء منذ قرون عديدة يبحثون عن منشإِ النيل وعن مخرج ينابيعهِ وهذا الامر لم ينجلِ تماماً الّا في العصر الاخير باكتشاف اصل النيل المعروف بالابيض من بحيرتي فكتوريا نيانزا والبار عند خط الاستواء. وفي هذا النيل الابيض ينصبُّ قرب الخرطوم النيل المعروف بالازرق المدعو ببحر الغزال الذي كان اصلهُ مجهولًا فتوفّق الى اكتشافهِ احد الآباء اليسوعيين وهو الاب بايز (Paez) الذي أُرسل الى الحبشة ليدعو اهلها الى طاعة الكرسي الرسولي فطاف تلك الاصقاع وردَّ كثيرين الى الحظيرة البطرسية وكان في اثناء تجوالهِ يصف الجهات التي يعاينها الى ان بلغهُ ذكر نهر النيل بواسطة قبائل تلك البلاد فاحبَّ ان يرحل اليهِ واتمَّ مقصودهُ فعلًا فوصف ما رأى في كتابٍ بقي حتى الآن بين دفائن المكاتب فاظهرهُ الى النور حضرة الاب بكّاري. وبنشر هذا الاثر النفيس حُلَّ مشكلٌ تاريخي كان زمناً طويلًا موضوع البحث والجدال بين العلماء كما سترى

كانت رحلة الاب بايز من الحبشة الى ينابيع النيل في اوائل القرن السابع عشر. فبعد وفاتهِ بنحو ١٥٠ سنة قدم بلاد النجاشي احد اعيان الانكليز اسمهُ جمس بروس (J. Bruce) تجشّم السفر الى الحبشة سنة ١٧٦٨ فرارًا من احزان كدَّرت صفاء حياتهِ في موطنهِ فتوغل في بلاد الحبش وصعد انجادها ولم ينكفئ راجعاً حتى وصل الى ينابيع النيل الازرق. فلمّا عاد الى مسقط رأسهِ سنة ١٧٧٢ جعل يسطّر اخبار رحلتهِ ونمّق ما صنع بذلك لولا انّهُ خلط الغثَّ والسمين واضاف الى اشياء صحيحة اموراً غريبة لا سند لها غير مخيلتهِ. وما هو اخطر من ذلك انّهُ نقل عن تآليف اليسوعيين الذين سبقوهُ اشياء كثيرة سكت عن اصحابها ونسبها الى نفسهِ. ومما ادّعاهُ انّهُ هو اوّل من توفّق الى اكتشاف النيل الازرق وذلك في كتابهِ المعنون «رحلتي الى اكتشاف ينابيع النيل» الذي طبعهُ في سكوتيا سنة ١٧٨٠ وانكر انَّ اليسوعي بايز بلغ الى معرفتهِ زاعماً انَّ ما ذكرهُ في هذا الصدد الاب أثناس كيرخر (Aedipus Aegyptiacus, I, p. 57, ed. Rome, 1652) انّما هو

محض اختلاق. وادّعى ان وصف الاب بايز الذي كان اختصرهُ الاب كيرخر ليس بدقيق ومن ثمّ لا يستحقّ الاعتبار. على انّ الهوى الذي يعمي البصيرة خدع هذه المرّة ايضاً عقل الرحّالة بروس ولمّا دافع عن صحّة اكتشافه لم يروِ من ملخّص الاب كيرخر الّا بعض الاسطر لينقض معانيها

وها نحن رعايةً للحقّ وبياناً لفضل المرسلين نثبت هنا الوصف الذي كتبهُ الاب بايز قبل بروس باكثر من ١٥٠ عاماً فيتحقّق القرّاء عدم استقامة الرحّالة الانكليزي وصدق الاب كيرخر الذي لم ينسب الى احد رهبان جمعيّته دعوى كاذبة . فضلاً عن انّ هذا الوصف يتضمّن فوائد عديدة تلذّ مطالعتها معرّبةً تعريباً غاية في الضبط عن الاصل البرتغالي وهو الفصل السادس والعشرون من تاريخ الحبش للاب بايز وقد اضفنا اليه قسماً من الخريطة التي اثبتها الاب دي ألميدا سنة ١٦٦٢ نقلاً عن الاب بايز عينه . وقابلنا بينها وبين خريطة الحبشة كما تُعرف اليوم ليستدلّ القارئ بالمقابلة على صدق اولئك المرسلين القدماء الذين كانوا ارفع مقاماً واشرف نفساً من ان ينسبوا لنفوسهم مدّعيات فارغة

الفصل السادس والعشرون (من تاريخ الاب بايز اليسوعي)

في النيل وينبوعه

« واذ كنّا قد بحثنا عن خصب الاراضي التي يملك عليها « الكاهن يوحنّا » (١ فلا بُدّ ان نلحق بذلك فصلاً عن اخصّ الانهار والبحيرات التي بها تزكو وتخصب تلك الانحاء . واوّل ما يتبادر الى ذهننا انّما هو ذلك النهر الشهير الضافي اعني بهِ النيل الذي دعاهُ الكتبة الاقدمون والمحدثون استناداً الى سفر التكوين في فصله الثاني باسم جيحون . قال الله (تك ٢ : ١٣) : « واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع ارض الحبشة » . اما اهل هذه البلاد فيدعونهُ اباوي (Abaoui) اي النهر الكبير . وينبعهُ في مملكة قوجام في بلاد صحالا التي يُعرف اهلها باسم اغوس وهم نصارى الّا انّهُ قد غلبت عليهم خرافات وثنيّة متعدّدة لمجاورتهم لبعض القبائل من جنسهم لا تزال تدين بعبادة الاصنام وهي كثيرة العدد

١) هكذا كان الاوربيّون يدعون ملوك الحبشة سابقاً وقد ذهبوا في تفسيره مذاهب شتّى

« وموقع هذا النبع تقريباً غربي هذه المملكة (casi ao poente) عند رأس وادٍ متسع كأنهُ السهل . وقد تمكّنتُ من مشاهدة هذا الينبوع في ٢١ نيسان من السنة ١٦١٨ . وكان اوّل ما لاح لي حوضين مستديرين يبلغ عرضهما اربعة اشبار فلمّا عاينت هذا المنظر اصابني منهُ فرحٌ عظيم اذ أُتيح لي بان اشاهد ما تاق الى رؤيتهِ كبار الرجال والفاتحين ككورش وكمبيس واسكندر ذي القرنين ويوليوس قيصر

« وماء هذا الينبوع شديد الصفاء خفيف على المعدة كما لحظتُ وقد شربتُ منهُ . الّا انَّ المياه لا تسيح على وجهِ الارض في قمّة الجبل لكنّها تنبجس في لحفهِ . وامرتُ احد رفقتي بان يركز رمحهُ في احد الحوضين وهو القريب من الطرف حيث ينبع الماء . فادخلهُ الى طول احد عشر شبرًا فشعرتُ بجذور الشجر التي في قعرهِ كأنها تسدُّ مسيل الماء .

« ويوجد فوهة أُخرى ينبع منها الماء وهي دون الينبوع السابق الى الشرق على مسافة نحو رمية حجر منهُ (abaixo pera oriente, como de hum tiro de pedra do primo) وقد سبرناها برمحٍ ذي اثني عشر شبرًا فلم يمكنّا بلوغ قعرها . فشدَّ احد البرتغاليين رمحين بلغ طولها عشرين شبرًا فلم يمكنهُ ان يدرك غور المياه والوطنيون يزعمون انَّ غورها لا يُسبر وقد اخبرونا أنهم اذا مشوا حول هذه المغاور كان لمشيتهم جلبةٌ يُسمع لها صدى في كل تلك الانحاء . فيستنتجون من ذلك انَّ هناك كهوفًا تتدفّق منها المياه وانَّ فوق المياه جذورًا من الشجر متشابكة بعضها يخالطها شيء من التربة وذلك ما يسمح بالمشي فوقها . وقد اكّد لي كثيرون ومن جملتهم النجاشيّ نفسهُ الذي نزل في ذلك المكان بعسكرهِ انَّ في هذه السنة لا يشعر المشاة بحركة مشيهم كما كان سابقًا وذلك لقلّة المياه والجدب الذي حصل في مدّة الصيف الاخير . امّا السنون السابقة فما كانوا يحلّون في هذا المكان الّا بكل حرص وكانوا اذا مشوا احسّوا بان الارض تُخسَف تحتهم وتهبط بهم الى عمق ثمانية او عشرة اقدام . وكانوا يرون الماء يتبجّس على شبه النوافر فيتصاعد الى الجوّ ثم يهبط . وكأنَّ المسافة التي تشغلها هذه الينابيع بحيرةٌ قديمة لا تبلغ طرفها رمية حجر الّا اذا أُلقي بالمقلاع

« واذا صعدت قريبًا من النبع الى اعالي الجبل ألفيتَ اوّلًا بعض المساكن واذا رقيت الى علو نصف ميل من الينبوع الغربيّ تصل الى جبل يدعوهُ اهل تلك الناحية

غويكس (Guix) وقيّتهُ غاية في العلوّ ينخدع بهـا البصر فيظنّها لا تتجاوز مرمى البندقيّة وكانت قبائل تلك البلاد تصعد الى مشارفها فتقدّم عليها عددًا من ذبائح البقر

« وفي ما فرط من الزمان كان يأتي هذه الجهات احد السَّحَرة فيذبح بقرةً يرمي برأسها في غمر المياه ثمَّ يصعد الى اعالي الجبل ويذبح ما يأتيـهِ بهِ الاهلون من البقر العديدة فيقدمها كتقدمة حافلة . ثمَّ كان يجعل على جسـهِ شحم الذبائح فيدخل في مرجـل عظيم نُصب فوق حطب منضود فيأمر بايقادهِ وكان يبقى في المرجل الى ان ينطفئ الحطب ويذوب الشحم على جسمهِ . وكان في بعض الاحيـان يدخل في المرجل بعد ان تُشعل النار وكان سحرهُ هذا يؤثر في الحضور فيكرمونهُ كوليّ عظيم ولا يطلب منهم شيئًا الّا تالهُ

« وفي السهول المنبسطة تحت هذا الجبـل تكثر مزارع القمح والشعير الى قرب الينابيع . امّا جهة الجنوب الشرقي والشمال فترى عنـد جوار الينابيع الدَّغل والاشواك تمتدُّ الى مسافة بعيدة وكأنّها احراج الطرفاء وهي تنتهي الى مزدرعات نامية على مدى نحو ميل . وهذا المكان على مُرتفع لا يقدم اليهِ احد الّا صعودًا ويمكن ان يُرتقى اليهِ من ايّ جانب كان لكنّ الطريق اصعب وأوعر من الشرق والغرب امـا الطريق من الشمال الى الجنوب فسهلة المرتقى . ومن جهة الجنوب على بعد نحو ميل من الينابيـع فرجةٌ وادٍ عميق وعريض معًا يجري فيهِ نهر وسَط يسيل الى النيل ويصبُّ فيـهِ ولعلَّ هذا النهر صادر من الينابيع نفسها

« اما مجرى الماء الذي يسيل من الحوض المستدير الشكل فانهُ يسيـل الى جهة الشرق الى مبلغ رمية بندقيّة حيث يُرى ثانيةً فيُعرَف بدلائل النبات الذي يجرُّهُ في سيرهِ ومن هيئة انعطاف الجبل . ثمَّ يدور الى جهة الشمال ويقطع مسافة ربع ميل ثم يعود الى وجهِ الارض متدفّقًا بين الحجارة . وهو هناك على غلظ جسم الانسان . واذا انحدر من هناك قليلًا انصبَّت فيهِ مياه جدولين آخرين من الشرق ثمَّ تأتيـهِ السواعد من كلّ الانحاء حتى اذا صار على بعد نحو يوم واحد جرى فيهِ مسيل كبير يُدعى « جاما » ثمَّ يسير بتَوْريبات ومنعرجات طويلة فيميل بعد مسافة ٢٠ او ٢٥ ميلًا الى جهة الغرب وتراهُ هناك نهرًا زاخرًا ثمَّ يدور منعطفًا الى الشمال بينما تأتيهِ السواعد من كل صوب

حتى اذا بلغ الميل الخامس والثلثين دخل في بحيرة واسعة تدعى «باد» تنقسم بين مملكتي قوجام ودامبان

« واني قد مشيتُ على ضفّة هذا النهر وتبعتُهُ الى دخوله في البحيرة المذكورة ثمَّ جريت على شاطئ البحيرة على مسافة طويلة وكنت ارقب جري النهر اي النيل في وسط البحيرة من مرقب عالٍ فظهر لي انَّ النيل يخرقها على عرض نحو نصف ميل . واذ كانت البحيرة هادية صقيلةً امكنني ان اميّز مجرى المياه . وكان النهر يُزجي اعشاباً شتّى ينقلها في سيره بلين . اما النباتات والتبن وغير ذلك مما كان على البحيرة في جانبي مجرى النهر فيكاد لا يتحرَّك البتة . لكنّي لم ابلغ الى المكان الذي يخرج فيهِ النهر من البحيرة . ولعلَّ المسافة بين مدخل النهر الى البحيرة ومخرجهِ منها نحو ستة اميال

« والنيل عند خروجهِ من بحيرة باد اغزر منهُ عند انصبابهِ فيها وهو مع كثرة مياههِ يتّسع اتساعاً بالغاً حتى انَّ الشاة في فصل الصيف يمكنهم قطعهُ . واذا ما خرج من البحيرة مال الى الجنوب ميلاً خفيفاً ثمَّ يسير خمسة اميال فيبلغ بلاد « علاتة » فيهبط من جنادل علوّها اربع عشرة ذراعاً . اما العرض بين الضفّتين فيبلغ رمية مقلاع . وفي فصل الشتاء عند زيادة المياه يحصل لسقوطها في الجنادل شبه الغمامة تُرى من مسافة بعيدة . وقد عاينتُ انا ذاتي هذه الغمامة غير مرَّة . وبعد هذه الشلّالة بمسافة قليلة تنحصر المياه في مضيق يسهل مدّ جسر من الخشب بين جانبيهِ وهكذا يقطعهُ النجاشي مع كلّ عسكرهِ . وهناك تنتهي مملكة بدكام (ويقال ايضاً « بدكام مدر » اي ارض بدكام)

« ثم يجري النيل في مملكة قوجام على طول بلاد « احرة بلوكا » وشوا ودامات ولا يزال يتّبع حدود قوجام مستديراً حتى يصير بازاء « كمار صنصا » وهو هناك قريب جداً من ينابيعهِ التي خرج منها حتى انَّهُ يمكن الوصول اليها بمسيرة يوم واحد . وقد سألت النجاشي « سلطان صغد » واخاه « سيلا خرسطوس » كم ينبغي من المراحل لو اردت السير على النهر تابعاً كلَّ منعطفاتهِ فاخذا يعدّان المراحل مع بعض وجوه الدولة فكان محصول الحساب انَّ ذلك يقتضي ٢٩ يوماً

« والنيل بعد بلوغهِ « كمار صنصا » يدور حول بلاد قوجام ويسري الى مملكة فزكولو واومباريا التي يسكنها الزنوج الذين قهرهم راس سيلاخرسطوس سنة ١٦١٣ .

وتلك البلاد واسعة جدًّا وهم يجهلون تخومها حتى انهم يدعونها باسم « ايز علـم » اي الدنيا الجديدة . ومن ورائها ليس سلطة للنجاشيّ وهم لا يعلمون شيئاً من امور اهلها لكنّهم يقولون انّ النيل يجري في بلاد الكفّار ومنها يسيل الى مصر » انتهى

هذا هو الفصل العجيب الذي فصّـل فيهِ الاب بايز ما عرفهُ حقَّ المعرفة عن النيل الازرق وكلامهُ لا يبقي شكًّا لمستريب . والسلام

النتائج التاريخيَّة

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

للاب هنري لامنس اليسوعي مدرس الجغرافية والتاريخ في المكتب الشرقي (تتمَّة)

وفي بطرّان من قضاء الكورة آثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخربة تدعى اشمونيت نرجح كونها انقاض هيكل اشمون الاله الفينيقيّ (١ الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطبّ عند اليونان . وكانَّ النصارى القدماء ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبدًا باسم القديسة اشموني اضحى اليوم خرابًا والاهل يكرّمونهُ وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرنَ بألم في الصدر ان يمسحنَ موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المعبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة الفتية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكنَّ الكتاب المقدَّس لا يذكر لها اسماً ولعلَّ الشرقيين اشتقوا اسمها اشموني من العبرانية שמינית اي الثامنة لانها قُتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابنَّا غير مرَّة أنَّ لبنان يمتاز بنباتهِ الزاخر وغاباتهِ الملتفَّة . امَّا اليـوم فمن يسرّح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراه اجرد في اكثر اماكنهِ قليل الاحراج والاشجار نسب الينا التحمّس والمبالغة وارتاب بصدق ما روينا من الادلَّة القديمة . غير أنَّ تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنـان قديمًا . ومن ذلك المساكن المسمَّاة « غابة »

(١ راجع ZDMG, 1905. 459 etc,

او « غابات » والتي يدخل في تركيبها اسم شجرة كالاعلام الآتي ذكرها : « سنديانة وبأوط وصفصافة وجوز وحور ودلبة ودلبتا وزعرور ورمّانة وخرّوب ولوز ولويزة وبطم ومشمش وزيتون » مع اشتقاق هذه الاسماء وفروقها وتصغيرها واضافتها الخ . فاسم نهر الدامور او كما يدعوهُ اليونان تاميراس يحفظ اسم النخل الذي يُقال لهُ بالفينيقيّة تامير (تمر) ويدل على قدم هذا الشجر في لبنان (١ . وبعض هذه الاشجار كانت بالمئة في الكثرة حتى تسمّت بها المقاطعات والاقاليم على نحو : « جبل الريحان واقليم التفّاح واقليم الخروب » كما بيّنّا ذلك فيما سبق من مقالاتنا عن الزراعة والاحراج في لبنان

ومما يقضي بالعجب هو اننا لا نرى في جملة النباتات الداخلة في الاعلام اللبنانيّة اسم الارز سيّد الاشجار في لبنان . فعلّة ذلك أنّ الاهلين بادروا في اول امرهم الى قطع غابات الارز واستثمار اخشابه باثمان غالية حتى تجاوزوا في عملهم كلّ حدود التروّي والفطنة كما سبق لنا ايضاحهُ (٢ فالارباح الفاحشة هي التي عرّضت اشجار الارز الى العيث والخراب حتى لم يبقَ منها الّا القليل وهذا القليل لم يسلم من تعدّي الانسان الّا بفضل القمم المنيعة التي نبت عليها مع أنّ الارز يؤثر المواضع العالية المعتدلة الهواء فلا يكاد ينبت في موضع ينقص ارتفاعهُ عن ثمانمائة او سبعمائة متر والمراكز المأهولة نجد اكثرها قائمًا في الوسط . على أنّ الشرائع الرومانيّة (٣ المختصّة بالاحراج كانت تلاشت اوكادت حينما شرع العمران يتأصل حقيقةً في لبنان اي في عهد وصول الموارنة اليه وقد كان اقتلاع الاشجار بلغ مبلغًا عظيمًا حتى لم تبقَ احراج تستحق الاعتبار الّا في الصرود العالية . فمجرّد وجود هذه الشرائع والكتابات العديدة المنصوصة فيها وهي تربي على المائة لمّا يوضح لنا جليًا الحاجة الماسّة الى تلك الوسائل لوقاية الاشجار وبما انّ هذه الكتابات ليس لها وجود الّا في لبنان فيسوغ لنا ان نستنتج أنّ غايتها انما كانت حماية ارز ذلك الجبل

---

١) راجع غراماطيق اللغة الفينيقيّة للعلّامة شرودر قنصل عام الدولة الالمانية حالًا في بيروت P. Schrœder: *Phœniz. Sprache*, 135 وكتاب جوره Ch. Joret : *Les plantes dans l'antiquité*, 396 ; ثم Clermont - Ganneau: *Rec. arch. orient.* v, 328,

٢) تسريح الابصار (١ : ١٢٩)

٣) تسريح ١ : ٢٢-٢٣

ومهما كان من الامر فكثرة المواضع اللبنانيَّة التي تسمَّى باسماء الاشجار او ما يرجع اليها من الحرف والمهن كمعصرة ومعاصر دليلٌ على انَّ لبنان كان ارضًا سادت فيها الزراعة بخلاف سواها من الصنائع كشغل المعادن مثلًا . فالاسماء العلميَّة لها اهميَّة كبرى من هذا القبيل فانها تؤيد نتائج بحثنا السابق . فاننا لا نكاد نصادف في جميع لبنان اسمًا يلمِّحُ الى تلك الصنائع الَّا اسم « معادن » في ناحية المنيطرة و « الفرزل » على السفح الشرقي وهي لفظة سريانيَّة ومعناها مسبك او معمل حديد

وهذه الملاحظة نفسها تتناول الينابيع المعدنيَّة او الحارَّة فكثيرًا ما نجد في اسماء الاماكن لفظة عين . اما اسم حمام او ما هو بمعناها فلا وجود لهُ البتَّة . ويؤيد ذلك علم طبقات الارض فانهُ يبيّن لنا ان الطبيعة لم تجُد على لبنان بوفرة المعادن كما ضنَّت عليه بالينابيع المعدنيَّة والمياه الحمَّة اذ ليس فيه صخور بركانيَّة

واما ما يدلّ على وجود الحيوان من اسماء المواضع اللبنانيَّة فليس بالواضح الصريح فلعلَّ اسمَي « مدينة الاسد » و « نهر الاسد » المارّ ذكرهما يشيران عند جغرافيي اليونان الى وجود الاسد قديمًا . واليوم لا نعرف من الاعلام الحاضرة المشتقَّة من اسم الحيوان الَّا اسم بنمرة اي بيت نمرة واكفرنمس . اما من الفيل قرنايل من بيروت وخرطوم في بلاد الشقيف فلا يكفيان للدلالة على ان الفيل وُجد قديمًا في لبنان لو لم تكن عندنا غير ذلك من الادلَّة التي اوردناها في ابحاثنا السابقة (١

*

ولعلهُ يخطر على بال كثيرين من القرَّاء اننا اسهبنا في هذا الموضوع . ويقول قائل : ما الفائدة من جميع هذه الافتراضات الوهميَّة ومن هذا التشريح اللغوي ؟ وما المنفعة من هذا الدرس بالمكروسكوب والتنقيب عن البقايا المتحجرة في بطن اللغة والتاريخ التي لا سبيل الى احيائها ؟ فلقد اجبنا على هذا الاعتراض في افتتاح مقالتنا وفي سياق كلامنا ونجيب عليه الان لآخر مرَّة

انَّ كل من تروَّى في مطالعة المقالات التي ادرجناها منذ ظهور المشرق عن احوال لبنان القديمة وتاريخهِ وجغرافيَّتهِ لا بُدَّ لهُ من ان يكون لاحظ ما لاحظناهُ نحن اقتنا

---

١) راجع مقالتنا المعنونة : « ما فقد في لبنان من قديم الحيوان » (المشرق ٨ : ٥٢٢ ; ٦٤٢)

وهو اننا نعرف ماضي لبنان بنص المعرفة اذا لم نعتمد إلّا على الشهادات والادلّة الكتابيّة التي تومئ اليه لا سيّما اذا كان مدار الكلام على ما تقادم عهده . فبالحقيقة ان هذه الشهادات جميعها من كتابات مرسومة على الحجارة وادلّة في كتب المؤرخين والجغرافيين وآيات من مؤلّفي الكتب المقدسة او غيرهم من الكتبة بلغات الشرق والغرب لا تتناول الّا بعض صفحات

لكن ما قولنا عن بقايا الابنية القديمة المتفرّقة على سطح الجبل ؟ فانها عجماء بكماء لا تنطق ببنت شفة ومن النادر ان نجد بين انقاضها جزءًا من كتابة او عبارة ضائعة في كتاب تفصح عن تاريخ بنائها واسمها والغرض منها . ومن طالع الجزء الاول من تسريح الابصار عرف ذلك حقّ المعرفة

فماذا ندري وماذا نعلم عن مساكن لبنان القديمة ؟ لعمري انّ ذلك يكاد ان لا يكون شيئًا . فلو استثنينا مدن الساحل فاننا لا نجد ذكرًا لموضع مأهول في لبنان قبل التاريخ المسيحي . ومن بعد التاريخ المسيحي لا نصادف كتابًا يصف اماكن لبنان قبل القرنين الحادي عشر والثاني عشر . فجلّ قصدنا كان اذن ان نعوّض بعض التعويض عن سكوت التاريخ ونسدّ بملاحظاتنا المتقدمة ذلك الخلل فاذا لم نتوفّق الى سدّه جميعه فلا اقلّ من ان نسدّ بعضه وما لا يعلم كلّه لا يترك جلّه فان العلم بالبعض خير من الجهل بالكثرة

فكم من موضع في الجبل ليس لهُ ذكر في كتاب وليس فيهِ شيء من العاديّات حتى ولا حدّ منقور في صخر يدلّ على مرور الانسان فيهِ . فهذا مما يحضّنا على ان نلتمس من اشتقاق اسمهِ أثرًا لماضيهِ وان نستمد من دراسة اصول اللغات الفوائد التي ضنّ علينا بها التاريخ والنصوص المكتوبة . فان كان العَلَم يونانيًا او لاتينيًا فيسوغ لنا ان نستدل من ذلك على ان الموضع الذي يدعى بهذا الاسم يتّصل تاريخهُ لعهد شيوع هاتين اللغتين في سوريّة . وان كان الاسم يدلّ على عبادة وثنيّة فترجح أنهُ من عهد انتشار تلك العبادات في الجبل اعني في الاربعة الاجيال الاولى للمسيح او قبل ذلك لا سيّما ان كانت تلك الاسماء ترجع الى عبادة فينيقيّة او اراميّة او اشوريّة . فتلك نتيجة ابحاثنا وهي على ما نظن من الاهمّيّة بمكان اذ تمهّد طريقًا لمعرفة تاريخ نشأة المساكن وهي في بيان الحقيقة بمثابة لا تقلّ كثيرًا عن الادلّة الكتابيّة

اما اولئك الذين لا يعوّلون الّا على الآثار المكتوبة فيبقى عليهم ان يستنتجوا انهُ لم يكن في داخل الجبل من مراكز مأهولة قبل التاريخ المسيحي الّا ما ندر لانَّ التواريخ لا تذكر قبل الجيل العاشر الّا ثلاثة اسماء مسماة صريحًا باسمائها ذكر اسطرابون (١ وهي جيجارتا وبورُوما وصنان

فلا نكر ان العمران لم يبدأ حقيقةً في لبنان قبل عهد الرومانيين غير انهُ من المعلوم ايضًا انهُ كان في لبنان أكثر من ثلاث قرى قبل التاريخ المسيحي فمن اراد الوقوف على الحقيقة فليطالع ما كتبناه في مقالاتنا عن كيفيَّة استعمار لبنان وعن سكّانهِ الاقدمين الّا اننا في عرض هذه الابحاث لم نتوصَّل حينئذٍ الّا الى نتائج بعيدة وادلَّة غير وافية بالمرام . اما الدليل الصريح على أنَّ لبنان لم يكن خاليًا من السكّان في قديم الزمان كما يوهمهُ سكوت التواريخ والكتابات فاننا نجدهُ خاصة في اعلام المواضع التي لخصناها وبيَّنّا انَّ بعضها فينيقيَّة وبالتالي متقدِّمة على التاريخ المسيحي بزمن طويل

على أنَّ هذه النتائج وغيرها من الدلائل التي لا حاجة الى العود اليها تحتجّ عنَّا ان كان من حاجة وتعذرنا فيما اذا كنَّا توقفنا طويلًا واسهبنا كثيرًا مثل هذا الموضوع الذي مع غُمّته لهُ فضل الحداثة والابتكار فيما يختص بلبنان على الاقل وغاية ما تتمنَّاه ان ينتهض بحثنا هذا الضعيف الهممَ العالية لابحاثٍ حديثة فنهنئ اذ ذاك نفسنا لاننا باسطرنا السابقة مهّدنا السبيل الى ذلك وفتحنا بابًا يطرقهُ بعدنا من هو اقدر منَّا

*

فهنا وعند هذه الامنية نقف بعد أستئذان القرّاء الافاضل الذين بكل لطف ومجاملة رافقونا في سياحاتنا الطويلة في ماضي لبنان . على اننا لا ندَّعي اننا في مقالاتنا المتقدمة وفينا بالمطلوب او استنفدنا المادَّة واستغرغنا الموضوع فاننا نغادر لبنان ونحن نعلم ان مسائل كثيرة فاتتنا دون ان نتعرَّض لها ومشاكل شتّى تركناها او لم نحلّها حلًّا مرضيًا

وعسى ان يأتي بعدنا من هو اسعد منَّا فيتخذها ويحكم فيها حكمًا نهائيًا او يوضحها احسن مما اوضحنا — ونحن نتمنّى في الختام أنَّ ما بذلناهُ من الجد والكد

١) كما مرَّ بك في كلامنا عن الايطوريين

يرفع طرفاً من النقاب الذي يحجب عنّا ماضي لبنان ويحث ذوي الفضل واهل العلم على أن يحذوا حذونا ويكملوا ما بدأنا بهِ فيُظهروا للعيان فضل هذا الجبل الشهير الذي اذاعت مديحهُ الكتب المقدَّسة . وهو لا يزال من ابدع محاسن واجمل مشاهد سوريَّة الخاليَّة (تمَّت)

اهمية التجارة في مدينة صيدا

بقلم الاديب توما افندي كيال

نشرنا في مجلة المشرق في اوائل السنة المنصرمة بياناً مختصراً عن واردات وصادرات مدينتنا صيدا وبيَّنَّا اذ ذاك ان التجارة تقدَّمت عندنا تقدُّماً مهماً سواء كان مع داخليَّة البلاد او خارجها وها نحن نقدم هذه المرة جداول اعمّ من الماضية وملاحظات ذات شان اخذناها من اوثق المصادر وتقبَّنا عن حقائقها كثيراً في المحلّات التجاريَّة فجاءت طبق المرغوب وخالية تقريباً من الغلط .

﴿ حالة التجارة عموماً في صيدا ﴾ لقد ازدادت علاقات صيدا التجارية في سنة ١٩٠٥ زيادة مهمة مع داخلية البلاد كبيروت ولبنان وصور وعكا وحيفا والنبطية والجديدة وحاصبيا وراشيا الخ · فوردتها من بيروت البضائع المتنوعة كالجوخ والحرير والخام والشيت والسلع على اختلاف اجناسها · وقد عُدِّل ان هذه الاصناف زادت وارداتها الى صيدا السنة المنصرمة ٣٠ في المائة · اما اسباب هذه الزيادة فمتأتية : (اولاً) من ازدياد عدد تجار الاقمشة في المدينة · (ثانياً) من اقبال اهالي القضاء ومن يجاورهم على ابتياع ما يلزمهم من صيدا نظراً الى ما يلاقونهُ من الهوادة في الاسعار ثمَّ لوجودهم فيها مطاليبهم كافَّةً خلافاً للسنين الماضية · اخيراً توفيراً للمصاريف التي يلزمهم تكبدها في بيروت · اما سائر الاصناف كالأرُز والكاز والسكّر والبنّ والجلود وفول العبيد وخلافها فقد استغنى تجارنا عن استحضارها من بيروت او بواسطتها لانها تكلفهم بمصاريف كثيرة كرسم المرفأ والنقل والعمولة ولهذا تراهم يستجلبونها من بضع سنوات راساً من محلاتها ويبيعونها باثمان اقل من بيروت وقد انتبه لهذا الامر تجار الجهات المجاورة وصاروا يتسوقون لزومهم من هذه الاصناف من صيدا · ونرى الآن بعين المسرة لان طلبات تجارنا من الاصناف المذكورة تزداد من

سنة الى اخرى ومن الجداول الآتية ومقابلتها مع جداول السنة الماضية ١٩٠٤ يبين للمطالع حقيقة كلامنا :

اهم واردات صيدا سنة ١٩٠٥

كاز ٢٢,٠٠٠ صندوق من باطوم
كاز ٧,٥٠٠ 〃 〃 امركة
سكّر ١٢,٠٠٠ كيس 〃 الاسكندريّة
ارُزّ انكليزي ١٤,٠٠٠ 〃 بطريق 〃
〃 رشيدي ٢٢,٠٠٠ قفّة من رشيد
البنّ ١٤,٠٠٠ كيلو 〃 عدن
ملح ٢,٢٩٤,٥٠٠ 〃 〃 بنغازي
طحين ١,٢١٥ كيس 〃 بيروت والشام وصمون
حبوب ١٠٠,٠٠٠ كيلة 〃 صور وحيفا وعكا
〃 ١٧٥,٠٠٠ كيلة 〃 الشقيف وبلاد بشارة والجديدة وحاصبيا
حُصُر ١٠,٠٠٠ حصيرة من الاسكندرية
فول العبيد ٨٠٠ كيس بطريق الاسكندرية
خشب ٥٠ فاكون من برّ الترك
جلود ٥٠ بالة من الاسكندرية
اكياس ١٠,٠٠٠ كيس بطريق الاسكندرية
جبن عكاوي ٨٠٠ سحارة من عكا وحيفا
بصل ٢٥٢,٧٢٠ كيلو من طرابلس وقبرس وسوريّة
نيل ٢,٢٥٠ 〃 بطريق بيروت
تنباك بيع منهُ ما يساوي ٢٥,٠٠٠ ليرة
دخان (تبغ) 〃 〃 〃 ٢,٦٠٠ 〃

اهم صادرات صيدا سنة ١٩٠٥

شرانق ٩٥,٠٠٠ كيلو الى لبنان
〃 ١٤٠,٠٠٠ 〃 بطريق صيدا
فول وحلبة ٦٤,٢٠٠ 〃 الى ليفربول ومرسيلة
تين يابس ٧٢,٠٠٠ 〃 〃 الاسكندرية
زيت ٤٨,٠٠٠ 〃 〃 〃
زيتون ١٦,٨٠٠ 〃 〃 〃
زبيب ٢٤,٠٠٠ 〃 〃 〃
ماء زهر ٦,٠٠٠ 〃 〃 سورية ومصر والاستانة
انكدونيا ٢,٠٠٠ سحارة الى بيروت ولبنان وطرابلس
تبغ ٦٠٠ كيس الى الاسكندريّة
رمان ٧٥٠ قنطاراً الى بيروت والقطر المصري
موز صَدر منهُ بقيمة ٢ آلاف ليرة فقط الى بيروت
بيض ٤٠,٠٠٠ بيضة الى الاسكندرية
〃 ٤٠٠,٦٠٠ 〃 من قضاء صيدا وبواسطتها الى بيروت
دجاج ٧٥,٠٠٠ طير من قضاء صيدا وبواسطتها الى بيروت
برتقال وحامض يصدر منها يومياً في اوقات الموسم الى بيروت ولبنان وسورية ١٥ الف حبة
برتقال وحامض ٤٦,٠٠٠ صندوق الى الاستانة واوربة
〃 〃 ١٤,٠٠٠ صندوق الى ليفربول
وقد أُرسل من البرتقال والحامض الى الاسكندرية في المراكب الشراعية كميات كبيرة لم نتوصل الى معرفة عددها الحقيقي

بيان المراكب التي دخلت ميناء صيدا سنة ١٩٠٥

البخارية	محمولها طن	الشراعية	محمولها	البخارية	محمولها طن	الشراعية	محمولها
عثماني ١٣٥	٦,٧٦٤	٢٣٢	٧,٧٤٥	مسكوبي ٩	١١,٢٧٨		
انكليزي ١٤	١٣,٤٧٤			امركاني		٢	٦٦٨
يوناني ٢	٢,٤٥٢	٢	٢,١٠٦	مصري		١	١٨٧
ايطالي ٥	٤,٧٩٢			المجموع ١٦٥	٢٨,٨٦٠	٢٣٨	١٠,٦٩٦

ملاحظات عمومية ان تجارة صيدا مع داخلية البلاد العثمانيَّة المجاورة لها تحسنت كثيرًا منذ ٥ سنوات لان الاهالي تبعث ارسالياتها الى بيروت والشام والبلاد السورية بواسطة صيدا نظرًا الى سهولة الطريق بينها وبين بيروت . فترسل الجديدة وحاصبيا وراشيا والقرى المجاورة كميات كبيرة من القمح والشعير والسمن والصوف والشعر . وبلاد بشارة في قضاء صور ترسل برًا عن طريق صيدا الفحم والقمح والعدس واصناف الحبوب كافة والدجاج والبيض . وفي طريق البحر يرسل ايضًا الى الجهات الجبن المعروف بالعكاوي من عكا وحيفا . ومن النبطية يتورد في كل اسبوع بعد السوق العمومي (الذي يقام فيها كل اثنين) الى صيدا مبلغ وافر من الحبوب فيصرف لاحتياجات الاهالي واكثره لسكان القضاء والقرى اللبنانية العديدة

التوت — لقد زاد داخل الحرير في صيدا وقضائها والاهالي يهتمون بغرس التوت والحكومة السنيَّة تشوقهم وتساعدهم على ذلك فلهذا نسمع الاهلين يتحدثون غالبًا بالامور العائدة بالفائدة على تحسين هذا الصنف . ومن مدة اخذ كل من يقطع شجرة تين او برتقال او زيتون لا يغرس عوضها الّا شجرة توت . فاذا بقي الحال كذلك مدة ١٠ سنوات متابعة تصير صيدا مشهورة بتوتها كاشتهارها الان ببرتقالها . اما اسعار الحرير في الموسم الماضي فكانت اعلى بقليل من السنة التي سبقتها

البرتقال — ان البرَد الذي تساقط عندنا في اواسط الربيع الماضي قد اضر باشجار البرتقال ومن جرَّاء ذلك هبطت اسعار الضمان ولحق بالملّاكين بعض الضرر

الحبوب — ان المزروعات كالقمح والشعير والحمص كانت ناقصة في سنة ١٩٠٥ بالنسبة للسنة التي قبلها ١٨ بالمائة نظرًا للامطار الغزيرة التي جاءت متأخرة في اواخر الربيع

الموز — ان البرد الشديد الذي حصل في ك١ سنة ١٩٠٥ اترل ضربة قوية بالموز فتلف اكثر من نصفه لكن لا بد من ان الملاكين يعودون قريبًا الى غرسه

الرمان — قد كان في غاية الاقبال في هذا العام وقد ازدادت ارساليته الى الخارج

الانكدونيا — ان موسمهُ كان زائدًا عن السنين الماضية بنسبة ٢٥ في المائة

الدخان . قد جرَّب الزراعون في بعض القرى اللاحقة بمديرية الشقيف زرع الدخان الاستانبولي فنجح نجاحًا لم يكن منتظرًا وكثيرون يفضلون شربهُ على الاستانبولي الاصلي لخفتهِ ولذة طعمهِ وقلة ضررهِ . اما مزروعات الدخان اجمالاً فكانت في سنة ١٩٠٥ ناقصة ٣٠ بالمائة . وهذا مسبب من المضايقات والمتاعب التي يلاقيها الفلاح في زرع هذا الصنف

المواشي — ارتفعت في هذه السنة اسعار الغنم واسعار البقر لما لحقها من المرض فزادت اثمانها بالمائة ٢٠

الاسماك — كلما كثر صيد السمك تتصاعد ايضًا اسعاره (خلافًا للقاعدة العمومية) فان المحتكرين يشترونهُ باسعار بخسة ويبيعونه فيما بعد في صيدا او في بيروت باسعار عالية

فما تقدم تبيَّن للقارئ اهمية التجارة في صيدا . هذا وقد ضربنا صفحًا عن ذكر اصناف كثيرة خوفًا من ان نمل المطالع وعليهِ فان تتميم الطرقات (العربات) ا ما بين صيدا قصور فعكاء فحيفا وبين صيدا فالنبطية فالجديدة فحاصبيا هو امر غاية في الضرورة وكذلك بين صيدا وقائمقامية الشوف . الّا اننا لاحظنا منذ الاسف في السنة الماضية ان الهمة بردت في العمل في الطرقات المذكورة . فرجاؤنا من الحكومة السنيَّة اصدار اوامرها لمن التزم هذه الطرق كيما يصير انهاؤها عاجلاً حبًا بمنفعة التجارة وتقدمها

اخيرًا ننبه اهالي صيدا للاهتمام بتأليف شركة تجارية تستجلب بواسطتها راسًا

من الخارج البضائع فتقتصد بذلك كثيرًا ويعود عليها هذا العمل بالارباح الغزيرة وقد اصبح الامر الان غاية في السهولة لانا قرأنا في البشير آخرًا فقرة مآلها: ان الشركة المساجري ماريتيم عزمت على تسفير بواخر بين بيروت وحيفا ويافا مرتين في الشهر فبهذه الواسطة يتمكن تجارنا من الاتفاق مع وكيل الشركة المذكورة في بيروت حتى تعرّج بواخر هذه الادارة بذهابها الى حيفا على صيدا وعندئذ يتمكنون من طلب البضائع من اوربة ونعلم يقينًا بان مقطوعية مدينتنا من الاقمشة عظيمة خلافًا لما يشيعهُ البعض ممَّن يرغبون تأخير تجارة هذه المدينة · اخيرًا نرجو من الحكومة السنية تمهيد السبيل بمساعدة الاهالي على مزاولة التجارة اذ بذلك تكون قامت بتتميم نيات جلالة السلطان الاعظم صاحب البلاد ايد الله سرير ملكه مدى الدوران

ايضاح مسألة في العماد

للاب انطون صالحاني اليسوعي

وردتنا رسالة من احد الكهنة من طائفة الروم الارثوذكس يستفهمُ فيها عن العماد الممنوح من الوثنيين والبروتستانت. قال: «سمعتُ من احد كهنة الكاثوليك ان تكميل سرّ المعموديَّة اذا أُعطي عند مسيس الحاجة لايٍّ كان ان يتمّمهُ حتى للوثنيين. اي لو فرضنا انهُ وُجد طفلٌ في حالة النزاع الاخير وليس موجودًا لديهِ احد من المسيحيين بل وُجد واحد من الوثنيين فيقدر ان يتمّم هذا السرّ المقدَّس على المذهب المسيحي · وحسب زعم هذا الاب يكون مقبولًا في كنيستكم ·ثم تطرَّف ايضًا الى معموديَّة البروتستانت وقال: بما انها غير صحيحة لذلك كنيستكم تعيدها · فنسألكم هل تقبل كنيستكم هذا التعليم · فأظنّ انهُ مغاير لمبدأ كنيستكم · فان كان مقبولًا فعلى ايّ شيء تستندون من الكتاب المقدَّس او من مؤلفات الآباء · فلا اظنّ احدًا من الاباء او من اللاهوتيين الشرقيين ام الغربيين ذكر ذلك · فعلى الغالب هو تعليم خصوصي لهذا الاب بقبولهِ معمودية الرجل الوثني الخارج عن الايمان بالمسيح وبرفضهِ معمودية البروتستاني الذي يؤمن بالمسيح · وبما ان مجلّتكم الغرّاء هي لسان حال الكاثوليك فتقدرون ان تبيّنوا من لهُ الحق أن يعمّد عند الضرورة...»

قبل ان نأخذ في ايضاح المسألة التي عُرضت علينا يحسن ويفيد ان نبيّن اولًا ما هو سرّ المعموديّة . فاذا بيّنّا ذلك أمكننا ان نحكم في عماد البروتستانت أهو صحيح ام باطل . ثم ننتقل الى خادمِ سرّ العماد ذاكرين من لهُ الحق ان يعمّد مُبيّنين ان هذا الحق مختص بالرعاة ثم بالشمامسة بتفويض من الرعاة . ثم في وقت الضرورة بالعلمانيين . وان خطية او هرطقة المعمِّد لا تمنع ان يكون العماد الذي يمنحهُ صحيحًا . ومن ثم ان العماد المعطى من الهراطقة والوثنيين اللهم اذا مُنح كما يجب يكون صحيحًا

فنقول ان المعموديّة هي سرٌّ مقدّس رسمهُ السيد المسيح ليمحو الخطيّة الاصليّة ويمنحنا حياة النعمة المبرّرة ويجعلنا ابناء الله بالشريعة ومستحقين للارث السماوي . وقد تكلّم المسيح عن العماد كأنّهُ ولادة جديدة لا جسديّة بل روحيّة لانّ بهِ ينتقل الانسان من موت الخطية الى حياة النعمة . قال لاسمهِ السجود: « ان لم يولد احد ثانيةً فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٣)

وقد عيّن المسيح مادة هذا السرّ اي الماء والصورة اي الكلام الذي يلفظهُ مَن يعمّد فتُخصَّص بهِ المادة لتكون سرًّا مقدّسًا . فاذا ما استُعملت المادة مع الصورة كانت علامة حسيّة يمنح الله بسببها النعمة المحيية . وتدلّ هذه العلامة الحسية على الفعل الخفيّ الذي يتمّ في النفس (١ . ففي العماد يُغسل الجسد بالماء ويلفظ المعمّد

---

١) بما ان غسل الجسد في العماد لا يُراد منهُ تنظيف الجسم بل الدلالة الحسيّة على ما يتمّ في النفس فسواء غُسل الجسد بالتغطيس او بالصب تكون الدلالة كافية لتعني ما يتمّ في نفس المعمّد من التطهير . وعليهِ فالعماد يصحّ سواء أُعطي بالتغطيس او بالصبّ . ولدينا برهان آخر على صحة العماد بالصب وهو ان الذين ينكرونهُ يسلّمون بهِ في بعض الظروف ويأمرون بمنحهِ في وقت الضرورة كما سلّمت بهِ ومنحتهُ الكنيسة في العصور الاولى . قال الشماس جراسيموس مسرّه (وهو سيادة المطران الحالي على الروم الارثوذكس ببيروت) في كتابهِ « الانوار في الاسرار » (الصفحة ٢٧ , ٢٨ الطبعة الثانية ١٨٨٨) ما نصّهُ بالحرف :

« امّا نضح الماء او سكبهُ على المتمدين الذي تستعملهُ الآن الكنيسة الغربيّة تحت اسم المعمودية فنقول فيهِ ما نقول في غيرهِ من امثالهِ وهو ان هذه الكنيسة قد اعتادت ان تجعل ما يخرج عن القانون قانونًا في هذا السرّ وفي غيرهِ . فقد حوّلت معموديتها الى رشٍّ مستندةً على ان الكنيسة القديمة عمدت احيانًا بالرش . على ان الكنيسة القديمة لم تسمح بهذا النوع الّا في ظروفٍ ضرورية لا مناص منها وعلى الخصوص للمرضى والمقعدين والمختلّين الذين لا يمكن تعميدهم بالتغطيس . ومع ذلك فقد كانت صورة المعمودية هذه للمرضى في القرن الثالث موضوع

هذه الكلمات : انا اعمدك الخ . فتطهير الجسد يدلّ على تطهير النفس بالنعمة وقت العماد كما قال الرسول : « وقد طهَّر الرش قلوبنا من دنس الضمير وغسل الماء النقي اجسادنا » (عبرانيين ١٠ : ٢٢) وقال ايضاً في محبة المسيح للكنيسة : « مطهرًا اياها بغسل الماء » (افسس ٥ : ٢٦)

قلنا ان المسيح عيَّن مادة المعمودية وهذه المادة ليست الّا الماء الطبيعي فانَّ المسيح والرسل لدى كلامهم عن المعمودية يذكرون دائماً الماء : « ان لم يولد احد من الماء والروح » (يوحنا ٣ : ٥) « هوذا ماء فما المانع من ان اعتمد » (اعمال ٨ : ٣٦) « ألعلَّ احدًا يستطيع أن يمنع الماء فلا يعتمد هولاء » (اعمال ١٠ : ٤٧)

وعيَّن ايضاً الصورة وهي هذه الكلمات : « انا اعمدك باسم الآب والابن والروح القدس » . او الصورة التي تشبهها عند الشرقيين : « يُعمَّد عبدُ الله (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس » . فان الرب في انجيله المقدس قال : « تلمذوا كل الامم معمدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) وقد ورد في القانون ٤٩ من القوانين المنسوبة للرسل : "ايما اسقف او قس لا يعمد باسم الآب والابن والروح

مشاجرات بين مسيحيي ذلك العصر اذ كان القسم الكبير منهم لا يعتبرون المرضى المرشوشين مُعمَّدين وكانوا يطلبون اعادة تعميدهم حتى ان القديس كبريانوس اضطرَّ اخيرًا ان يكتب في هذا الموضوع لينزع الخلاف من بينهم ذاهباً الى ان سرَّ المعمودية لا يعدم قوَّتهُ ولا صحتهُ اذا تُمّم عند الضرورة بالرش وانهُ لا حاجة بعد ذلك الى اعادة التعميد . والكنيسة الارثوذكسية ايضاً تتنازل لهذه الاحكام ولا تعيد معمودية للذين اقتضت الضرورة تعميدهم بالنضح او بالسكب كالمرضى وامثالهم ولا تعتبر قوة سرّ المعمودية مفقودةً عنهم بسبب النضح ولكنها لا تسمح ولا تقبل باجراء المعمودية على هذه الصورة الّا لدى الظروف التي تقتضيها وهي لا تزال تحسب ذلك خروجاً عن القانون العام ووجهاً اضطرارياً للذين حكمت عليهم طوارق الدهر حتى لا يكونوا بلا تعميد

فضلال الذين يعمّدون بالرش ظاهرٌ ولا يحتاج الى اكثر مما ذكرنا الآن في هذا المقام » اه .

فن كلام سيادته نبرهن ونقول ان الضرورة لا تجعل طريقة استعمال السرّ صحيحة بل تفترض صحتها وتجعلها فقط جائزة . فالضرورة مهما كانت عظيمة لا يمكنها ان تجعل صحيحاً سرّ الافخارستيا مثلًا اذا استُعمل فيهِ خبز الشعير عند ما يصعب وجود خبز حنطة . كذلك نقول عن المعمودية . اذا كان التعميد لا يصحّ بالصب خارجاً عن الضرورة فالضرورة لا يمكنها لن تجعلهُ صحيحاً . وعليهِ فبما ان العماد يصحّ بالصب في الضرورة نستنتج بكل حقّ انهُ يصحّ ايضاً خارجاً عن وقت الضرورة

القدس حسب فريضة الرب بل باسم ثلثة ازليين او ثلثة بنين او ثلثة «مزّين فليقطع»

ولكن لا يكفي استعمال المادة والصورة دون وضع النية في تتميم ما تعمله الكنيسة اي القصد والارادة ان يعمل الخادم ما تعمله الكنيسة او ما رتبهُ المسيح. فلو استُعملا على طريقة الحكاية والتمثيل فقط دون وضع النية لا يتم السر

فاذ تقرر كل ذلك نقول ان احزاباً كثيرة من البروتستانت لا يستعملون الصورة المفروضة من الرب بل يفسدونها ولهذا السبب لا يدرَج العماد الذي تمنحهُ تلك الفرق. فالكنيسة الكاثوليكيَّة لاتجزم ان كل عماد يُعطى من البروتستانت هو غير صحيح بل تلزم بفحص الطريقة التي يجرون عليها في العماد. فاذا ثبت بعد الفحص المدقق انهم يحسنون اعطاء العماد باستعمال المادة والصورة المفروضتين وبوضع النية يُقبل عمادهم. امَّا اذا ثبت انهم يفسدون الصورة او لا يستعملون الماء الطبيعي بل ماء الورد مثلًا او ماء الزهر ام لا يضعون النية فالكنيسة الكاثوليكيَّة توجب اعادة العماد لا لانهُ أُعطي من البروتستانت لكن لانهُ لم يُعطَ كما يجب. لا بل اذا تحققت ان احد الكاثوليكيين افسد الصورة بالغرَض فانها تلزم باعادة العماد المعطى منهُ ولو كان مانح العماد كاهناً او اسقفاً

خادم سرّ المعمودية

ان خدَمة سرّ المعمودية الاعتياديين هم الرعاة الذين خلفوا الرسل اعني بهم الاساقفة والكهنة. لان المسيح اقامهم ليوزعوا النعَم بمنح الاسرار. فللرسل قال المسيح «اصنعوا هذا لذكري» و«من غفرتم خطاياهم تغفر لهم» و«تلمذوا كل الامم معمدين اياهم...»

ولكن لما كان العماد يكثر منحهُ خاصة في اوائل الكنيسة بسبب ارتداد الوثنيين الى الايمان الحقيقي ولانهُ سرّ يعمّ جميع المقبلين على الكنيسة وكان الرسل ومن خلفهم مشتغلين بالبشارة واذاعة كلمة الله اقام الرسل شمامسة ليساعدوهم في تتميم بعض وظائف. فالشمامسة هم خدَمة سرّ المعمودية لكن بتفويض من الرعاة. قال ترتليانوس: «ان الكاهن الاعظم الذي هو الاسقف له السلطة في منح العماد. ثمَّ الكهنة ثم الشمامسة لكن بتفويض من الاسقف وذلك حفظاً لكرامة الكنيسة.

فاذا حفظت هذه الكرامة حفظ السلام » (١ وقال ايرونيموس : « بدون اذن الاسقف لا حق للكاهن ولا للشماس ان يعمدا » (٢ وبما انَّ هذه القضيَّة لا يرتاب فيها احد فلا حاجة الى مزيد الايضاح والافاضة في تثبيتها

فما سبق يظهر في اول الامر انهُ لا يمكن للعلمانيين ان يعمّدوا . ومع ذلك فتعليم الكنيسة المسلّم بهِ منذ نشأتها هو انَّهُ يحق لهم ان يعمّدوا والعماد الممنوح منهم يكون صحيحاً وفي وقت الضرورة جائزاً ايضاً . فهم خدَمة المعمودية غير الاعتياديين . هذا ما يجب بيانهُ الآن . والدليل القاطع لا نجدهُ في الكتاب المقدَّس بل في التقليد وتعليم الكنيسة . الّا ان الكتاب يحتوي ما يقرّب ويسهّل قبول البرهان في الموضوع

اذ كان العماد ضروريًّا للخلاص ضرورة الواسطة حسب قول المسيح : « من آمن واعتمد يخلص » (مرقس ١٦ : ١٦) وقوله : « ان لم يولد احد ثانية فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٣) وقوله ايضاً : « ان لم يولد احد من الماء والروح فلا يقدر ان يدخل ملكوت الله » (يوحنا ٣ : ٥) شاء الله بجوده ومحبتهِ للبشر ان يجعل قبولهم العماد ممكناً بل سهلاً في اي بلد كان في كل مملكة ومدينة وقرية وبيت . وفي اي وقت كان في كل يوم وساعة ودقيقة . ولهذا السبب اتخذ المسيح لسرّ العماد مادةً نجدها دائماً وفي كل مكان وهي الماء . فانهُ يهطل من السماء ويتفجر من الصخر ويملأ البحار ويأتينا من ينابيع بعيدة جارياً في الجبال والسهول ونستنبطهُ من جوف الارض بحفر الآبار . ولا قوام لحياة الانسان على وجه المسكونة الّا بهِ . فهو بين يديهِ متى رغب . وعليهِ فمنح العماد من جهة المادة سهل للغاية

ولكن ما الفائدة من السهولة في وجود المادة لو كان المسيح حصر منح العماد في بعض افراد هم الكهنة كما عمل في تقديس سرّ الافخارستيا ومنح الحلّة في سرّ التوبة . أما انهُ بعد ان الزم الجميع حتى الاطفال بقبول العماد للخلاص كان عرّض كثيرين للحرمان منهُ ولفقد السعادة الفائقة الطبيعة . لانهُ يتعذر وجود الكهنة في كل

١) في المعمودية ١٧ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ١ الصفحة ١٣٣٧

٢) في محاورتهِ ضدّ اللوسفرانيين العدد ٩ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ٢٣ ص ١٧٣

مكان وفي كل ساعة . فلهذا السبب رغماً عن توجيه المسيح كلامهُ الى الرسل الاحد عشر بقولهِ : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمّدين اياهم باسم الآب والابن والروح القدس » (متى ٢٨ : ١٩) لم يحصر اعطاء العماد في الرسل ومَن خلفهم. فنسمعهم يصرّحون بأن وظيفة العماد ليست خاصة بهم فقد قال الرسول: « ان المسيح لم يرسلني لاعمّد بل لأبشر » (١ كورنتوس ١٧:١) ونرى رجالًا ليسوا رسلًا ولا كهنة كالشمامسة وغيرهم يمنحون سر العماد كما فعل فيلبس الشماس الذي عمّد قيم خزائن ملكة الحبشة (اعمال ٨ : ٣٨) وكما عمل حننيا اذ عمد بولس الرسول في دمشق (اعمال ٩ : ١٨) ولا شيء يؤكد ان حننيا كان اسقفاً او كاهناً او شماساً بل يذكر عنهُ فقط انهُ من مسيحيي دمشق « وكان بدمشق تلميذ اسمه حننيا » (اعمال ٩ : ١٠) ونرى في يافا بطرس الرسول يامر بان يعتمد آل بيت قائد المائة كرنيليوس (اعمال ١٠ : ٤٨) ولم يُذكر انَّ بولس الرسول عمّد الذين آمنوا في افسس بل يذكر ما يُشعر بنفي ذلك وان بولس احتفظ لذاتهِ ان يمنحهم بعد اعتمادهم سر التثبيت « فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع ووضع بولس يديهِ عليهم فحلَّ الروح القدس عليهم » (اعمال ١٩ : ٥و٦) . ولمّا آمن اهل السامرة صغيرهم وكبيرهم بما كان فيلبس الشماس يبشرهم بهِ اعتمدوا رجالهم ونساؤهم (اعمال ٨ : ١٠—١٣) ولم يكن اذ ذاك احد من الرسل في السامرة . وانما ذهب اليها بعد ذلك بطرس ويوحنا ليعطيا الروح القدس للذين كانوا اعتمدوا قبلًا

فبعد الوقوف على هذه الحوادث ولم يُذكر منها الّا النزر اليسير في اعمال الرسل مَن ينكر ان العلمانيين في اوائل الكنيسة كثيراً ما كانوا يمنحون سرّ المعمودية عند مسيس الحاجة اذا لم يجدوا لا كاهناً ولا شماساً يقوم بهذا الواجب . أفلا ترى ان اعمال الرسل تبين دائماً الفرق العظيم الموجود بين منح المعمودية ومنح الروح القدس . فلا اهمية البتة لذكر خادم المعموديّة عند القديس لوقا كاتب اعمال الرسل بينا نراه متأنياً في تعيين الرسل كخدمة لسرّ التثبيت وفي ذكر قدومهم من اماكن شاسعة لمنح هذا السرّ . ولا سبب في هذا الفرق الّا ان العماد كان يعطى ايضاً من العلمانيين اما سرّ التثبيت فكان مختصاً بالاساقفة والكهنة ايضاً بتفويض خاصّ

وقد اوضح آباء الكنيسة هذه الحقيقة حتى لم يبق فيها اقل ريب . فبعد ان اكد

ترتليانوس ان السلطة في اعطاء المعموديّة هي خاصّة الاسقف ثم الخوري فالشماس قال: « الّا ان العلمانيين لهم ايضًا الحق ان يعمدوا ... يمكن لكل انسان ان يمنح العماد لانهُ عطيّة الله » (١ . وايرونيموس بعد قولهِ: لا حقّ للكاهن والشماس ان يعمّدا بدون اذن الاسقف قال: « لكنّا نعلم انهُ كثيرًا ما يجوز للعلمانيين ان يعمّدوا اذا اقتضت الضرورة » (٢

ولكي تفهم هذه المسألة حقّ الفهم يلزم ان نميّز امرين في منح سرّ المعموديّة هما صحة السرّ وجواز منحه. فيمكن ان يكون منح العماد صحيحًا دون ان يكون جائزًا. فلو افترضنا ان كاهنًا لاتينيًا يعمّد بالتغطيس فان العماد الذي يعطيه يكون صحيحًا لكن غير جائز لانهُ يخالف رتبة طقسهِ الذي يأمرهُ ان يعطي العماد بالصبّ. وهذه المخالفة هي خطأ مميت. واذا عمّد الكاهن الرومي بالصبّ يكون عمادهُ صحيحًا ايضًا لكن غير جائز لمخالفتهِ رتبة طقسهِ في امرٍ مهم. وهكذا العلماني اذا عمّد بالاحتفال المختص بالكهنة او في غير الضرورة يكون عمادهُ صحيحًا لكن غير جائز

وهؤلاء آباء الكنيسة تراهم يميّزون بكل صواب في اعطاء سرّ المعموديّة صحة السرّ وجواز منحه. فيعلّمون انهُ لا يجوز للعلماني ان يتعدّى حقوق الكهنة في منح سرّ المعموديّة ويقولون انهُ يخطئ اذا منحهُ بدون ضرورة لكنّهم يؤكدون ان السرّ الممنوح على هذه الطريقة يكون صحيحًا لا باطلًا وإن اخطأ الذي تعدّى الحقوق. امّا اذا اعطى العلماني العماد لضرورة موجبة فيكون عملهُ خاليًا ايضًا من الخطأ

قال القديس اوغسطينوس (٣ : « ان احوجت الضرورة العلماني فمنح العماد لمدنفٍ على الموت... أفيحقّ لاحد القول انهُ يلزم اعادة هذا العماد. لانهُ لو أُعطي بدون ضرورة موجبة كان تعدّيًا على حقوق الغير. لكن اذا احوجت الضرورة لاعطاء العماد كان الذنب خفيفًا (٤ او لم يكن ثَمَّ من ذنب. ومع ذلك وان أُعطي العماد بدون

١) في المعمودية الفصل ١٧

٢) في محاورتهِ ضد اللوسفرانيين العدد ٩

٣) في مقالتهِ ضدّ برمنيانوس الكتاب الثاني العدد ٢٩ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين المجلد ٤٣ الصفحة ٧١

٤) لعلّ اوغسطينوس يتكلّم عن الخطأ الذي يرتكبهُ العلماني مانح العماد في وقت الضرورة اذا منح العماد بالاحتفال المختص بالكهنة او اذا منحهُ بحضور كاهن او شماس

ضرورة البتّة مع التعدّي على حقوق الغير واعطي من ايّ كان ولايّ كان فانّ العماد متى مُنح لا يمكن القول انهُ لم يُمنح وإن اصبنا في قولنا ان منحهُ كان غير جائز . لكن هذا التعدّي غير الجائز يُغفر اذا ارعوى الانسان وندم »

ولا بدّ من التنبيه انّ الحق الذي للعلمانيين في منح العماد هو فرض تلزمهم بهِ المحبّة المسيحيّة في وقت الضرورة . فلا يجوز لهم ان يعمدوا الّا في خطر الموت اذا لم يوجد كاهن او شماس يقوم بهذا الفرض الواجب . واذ ذاك ليس فقط يجوز للعلماني بل يجب عليهِ اعطاء العماد واذا لم يعطهِ كان «مذنباً لهلاك انسان» كما يقول ترتليانوس(١

فاذا تقرَّر كل ذلك نخطو خطوةً اخرى لحلّ المشكل الذي عُرض علينا بخصوص العماد المعطى من الوثني . فتمهيداً لحل المشكل ينبغي ان توضح مسألة ذات اهميّة وهي انهُ لا يُشترط لصحة السرّ ان يكون مانحهُ ذا ايمانٍ مستقيم او في حال النعمة

ان مسألة صحة او عدم صحة العماد باعتبار استقامة او عدم استقامة ايمان المعمِّد وديانتهِ ليست حديثة في الكنيسة . وقد اثارت في القرن الثالث والرابع للمسيح جدالًا عنيفاً تناظر فيهِ اشهر الاساقفة مثل القديس قبريانوس الشهيد والقديس اوغسطينوس وعُقدت بشأنها مجامع عديدة . وبسبب هذه المسألة حدث في الكنيسة انشقاقانِ يعرَف الاوَّل منهما ببدعة مُعيدي العماد والثاني ببدعة الدوناتيين نسبة لدونات احد اساقفة افريقية

ومختصر الخبر هو ان بعض اساقفة افريقية ومن جماتهم القديس قبريانوس وبعض اساقفة الشرق ومنهم فرمليانوس مطران قيصرية قبدوقية ادَّعوا بان العماد الممنوح من هرطوقي هو باطل وانهُ يلزم اعادته لمن يأتون الى الكنيسة الكاثوليكيَّة

فلمَّا أن تلبَّدت السماء بالغيوم وخيَّم الظلام على بعض العقول واخذت الآراء تتضارب جمع قبريانوس سنة ٢٥٦ مجمعين محلّيين حضر الاوَّل منهما ٣١ اسقفاً والتأم في الثاني ٧١ وقرَّروا ان الاسرار التي تُمنح خارجاً عن الكنيسة الكاثوليكيَّة لا يمكن ان تكون صحيحة . وغب عقد هذين المجمعين اوفد قبريانوس الى رومية اسقفين أصحبهما بتحرير غاية في الرقة والاحترام الى الحبر الروماني القديس اسطفانوس الاول

١) في المعمودية العدد ١٧ راجع مجموعة آباء اللاتين لمين ا الجلد ١ الصفحة ١٣٢٨

(٢٥٤—٢٥٧) يخبره بما قرره الاساقفة ليثبتهُ بسلطتـه . فكان هذا الخبر كشرارة وقعت في غابة فاضرمت فيها حريقًا هائلًا لانَّ القديس اسطفانوس لتعلقهِ بالتقليد القديم ساءهُ ما بلَّغهُ اياه الاسقفان المرسلان من طرف قبريانوس فلم يعطهما تحيَّة السلام وكتب الى قبريانوس رسالة شديدة اللهجة بيَّن فيها العادة القديمة قائلًا: « اذا عاد اليكم احد من أيَّة هرطقة كان فلا تُبدعوا شيئًا جديدًا بل اتَّبعوا ما سُلّم اليكم وهو ان تضعوا فقط عليه الايدي للتوبة » وتهدَّد بالقطع قبريانوس واساقفتهُ ان لم يرعووا. وارسل ايضًا رسالة في المعنى نفسـه الى فرميليانوس والاساقفة الشرقيين من قيليقية وقبدوقية شركاء قبريانوس في رأيه

الّا ان قبريانوس لم يُذعن حالًا للحقيقة بل ألف سنة ٢٥٨ مجمعًا آخر التأم فيه ٧٨ اسقفًا وعدد غير يسير من الكهنة والشمامسة والعوام فأثبتوا ما كانوا قرَّروهُ سابقًا . والى القديس قبريانوس يشير اوغسطينوس في رسالتهِ ٤٨ الموجهة الى ويشنسيوس الدوناتي (العدد ٣٨) اذ يقول : « لعلَّ الذين ابتهجوا اي ابتهاج بغلطهِ حذفوا من كتاباتهِ ما يدلّ على انهُ تاب عنهُ لئلّا يُحرموا محاميًا لهم عظيمًا »

هذا وان مقاومة قبريانوس للتعليم القديم لا تمسُّ صحة ايمانه لان المسألة لم تكن تعتبر اذ ذاك متعلقةً بالايمان بل مسألة تهذيبيَّة . ولم تكن الحقيقة تحدَّدت بعدُ في مجمع مقبول في الكنيسة ولهذا نرى قبريانوس يعترف في رسالتهِ الى البابا اسطفانوس انهُ ترك ملء الحرّية لاولئك الاساقفة الذين في افريقية نفسها لم يكونوا يعيدون العماد المعطى من الهراطقة . وقد قال اوغسطينوس (١ عن قبريانوس انهُ « حفظ رباط الاتحاد بكل تواضع » . وهكذا القول عن فرميليانوس . ولا يخفى ان قبريانوس استشهد سنة ٢٥٨ فاذا كانت صدرت منهُ بعض هفوات في جدالهِ مع البابا اسطفانوس فقد كفَّر عنها بسفك دمه . ولم يلبث الهياج الذي ثار في ايامه ان همد وانطفأت نارهُ بتحديدات أرل الكاثي والمجمعين المسكونيين الاول والثاني

وقام في القرن الرابع الدوناتيون مدَّعين ان العماد لا يصحّ اذا كان العاقد في حال الخطية المميتة خاليًا من النعمة المبرّرة. ثم لطَّفوا خطأهم مقتصرين على القول بانـهُ

---

١) في العظة ٣١٢ العدد ٦

لا يصحّ العماد الممنوح من الخاطي المشهور لا الخفي . فنهض القديس اوغسطينوس (٣٥٤–٤٣٠) لمناظرة الدوناتيين ومناقضتهم فأفحمهم وانتصر للحق مستنداً الى ما كانت قررتهُ الكنيسة الكاثوليكيَّة من انّ العماد الممنوح من الهراطقة يكون صحيحاً اذا أُعطي مع الشروط الواجبة فكم بالحري يكون صحيحاً اذا كان مانحهُ كاثوليكياً وإن خاطئاً

فالخلاف كلهُ اذاً ينحصر في صحة العماد او عدم صحته نظراً لايمان المعمد وبرارته . فاصحاب التعليم الفاسد يدَّعون بانّ العماد وإن روعيت فيه كل الشروط لا يكون صحيحاً ما لم يُعطَ من خادمٍ مستقيم الرأي في الايمان اي كاثوليكي وغير خاطئ اقلّهُ بخطية علنية . اما التعليم القديم فيقول بانَّ العماد على افتراض انهُ أُعطي باسم الثالوث الاقدس مع الشروط الواجبة يكون صحيحاً وإن كان خادم العماد هرطوقياً او مارقاً من الدين او خالياً من النعمة المبرّرة

فاذا بيَّنا ان صحّة السرّ لا تتوقّف على ايمان خادم السرّ وبرارته جاز لنا ان نستنتج بكل صواب ان العماد يكون صحيحاً وان أُعطي من وثني بشرط ان يمنحهُ كما تمنحهُ الكنيسة وان يقصد عمل ما تعملهُ

وهذه القضية تُبيَّن بالتقليد الدائم وتعليم الكنيسة القديم . فانها علَّمت على الدوام ان المعموديَّة لا تكتسب شيئاً من ايمان الخادم وبرارته ولا تخسر شيئاً لكفرهِ وخطيتهِ

فانَّ رأي قبريانوس واصحابه لم يكن إلّا حديثاً لا يرتقي الى اكثر من اربعين سنة اي الى زمان اغربينوس اسقف قرطجنة سنة ٢١٧ او ٢١٥ وهذا اغربينوس كان اوَّل من قال بهذا التعليم الجديد الفاسد . بينما التعليم الكاثوليكي القديم عُمل بهِ منذ اوائل الكنيسة كما أكّد ذلك البابا اسطفانوس الاول اذ كتب الى قبريانوس : «لا تبدعوا شيئاً جديداً بل اتّبعوا ما سُلّم اليكم» . واذا كان قبريانوس شارك ٧٨ اسقفاً في نوميدية و ٥٠ في فريجية فما هذا بالنسبة الى العدد العديد من الاساقفة في العالم اجمع . ولا يخفى انهُ كان في ذلك الوقت في افريقية وحدها اكثر من ٥٠٠ اسقف وانهُ وُجد في الجمع المكاني المنعقد سنة ٣١٤ في ارل من اعمال فرنسة نحو ٦٠٠ اسقف

(التتمة في العدد القادم)

صوم نينوى في الكنائس الشرقية

نظر تاريخيّ ليوسف افندي غنيمة البغداديّ وللاب لويس شيخو اليسوعي

ارسل لنا مكاتبنا البغدادي الاديب يوسف افندي غنيمة فصلًا عن صوم نينوى الشائع في الكنيسة السريانيَّة . وكان سابقًا حضرة الاب الفاضل الخوري ابراهيم حرفوش كتب في ذلك نبذة في جملة مقالة مطوَّلة عن الصوم لم تسمح الفرصة بنشرها . ثمَّ راجعنا عدَّة كتب ليتورجيَّة وتاريخيَّة فجمعنا كل هذه المعلومات في مقالة واحدة لتتمَّ بها الفائدة ل . ش

في كلّ سنة قبل حلول الصوم الكبير بثلاثة اسابيع يرحّب السريان والكلدان بصوم يدوم ثلاثة أيام اوَّلها الاثنين وآخرها الاربعاء (وهو يوافق في هذا العام اليوم الخامس والسادس والسابع من شباط) يدعونهُ صيام نينوى وربَّما دعوهُ ايضًا بالباعوثة . امَّا نسبتهُ الى نينوى ففيهِ اشارة الى توبة نينوى التي جاء تفصيل خبرها في سفر يونان النبيّ لمَّا انذر اهلها بغضبهِ تعالى وتهدَّدهم بدمار مدينتهم فانابوا الى الله وباؤوا باثمهم تائبين بالصوم والصلاة ولبس المسوح فقبل الربّ توبتهم وغفر لهم خطاياهم ولم يلحق بمدينتهم ما اضمرهُ لها من الخراب . امَّا تسميتهُ بالباعوثة فذلك اشتقاق من اللفظة السريانيَّة (ܒܥܘܬܐ) ومعناها الطلبة والدعاء لما يُقام من الصلوات والادعية في ذلك الوقت

﴿ اصل صوم نينوى ﴾ انَّ هذا الصوم عريق في القدم ألِفهُ الشرقيُّون منذ القرون الاولى ولو قيل انَّ نصارى العراق اتَّخذوهُ ذكرًا لصوم نينوى عند ما دانوا بالنصرانيَّة لَمَا قالوا شططًا وقد وجدوا في حفظهِ فرصةً جديدة للتكفير عن آثامهم وللندامة الى الله مع الانقطاع الى اعمال البرّ والاماتة

وكأنّي بالقارئ يتصدَّى لي قائلًا وكيف يا ترى اجاز النصارى الشرقيُّون اقامة صوم من اصوام العهد العتيق بعد ان ابطل السيّد المسيح وتلاميذهُ الحواريّون السُّنن الموسويَّة . فنجيب على هذا بقولنا انَّ صوم نينوى ليس بفريضة من الفرائض الموسويَّة ولا كان جاريًا عند اليهود وانَّما ورد فقط ذكرهُ في الاسفار المنزلة . ومن ثمَّ لا بأس من القول بانَّ نصارى الشرق احيوا ذكرهُ شكرًا لله على نعمة جاد بها على آبائهم وتكفيرًا عمَّا اجترحوهُ هم من الذنوب . ولعلَّ هذه العادة سبقت في العراق عهد

الهرطقة النسطوريَّة فانتشر هذا الصوم من الكلدان الى الملل الاخرى. وعلى كلّ حال لا نرى موجباً لتفنيد قول البيروني في الكتاب الآثار الباقية من القرون الخالية (ص ٣١١) وهو يعلّل هذا الصوم بذكر صوم اهل نينوى حيث قال: «وكصوم نينوى فانهُ يوم الاثنين الذي قبل اوّل الصوم الكبير باثنين وعشرين يوماً وهو ثلاثة ايّام. وذكروا انَّ قوم يونس لمَّا اظلّهم العذاب ثمَّ كشفهُ الله عنهم وآمنوا صاموا هذه الثلاثة ايّام»

على انَّ الكلدان يروون في اصل صوم نينوى غير ذلك. فيجيبون على الاعتراض السابق جواباً اورد نصَّهُ الينا اسقف النساطرة في دمشق في كتاب النواميس نقلاً عن يوحنَّا بريشوع الجاثليق الذي تولّى كرسيَّ الفطريركيَّة على الكلدان من سنة ٩٠٠ الى ٩٠٥ قال (راجع المكتبة الشرقية للسمعاني ج ٢ ص ٤٢٦):

«تشاجر قوم مع (النصراني) ابي العبّاس الفضل بن سليمان في امر الصوم المعروف بنينوى في ايام هذا الصوم في سنة تسعين ومائتين للعرب وذلك في سنة الف ومائتين واربعة عشر للاسكندر (٩٠٢ م) في احد عشر من كانون الثاني فكتب ابو العبّاس الى ابينا يوحنّاً الجاثليق ذكرنا الله بصلواتهِ يسألهُ عن العلّة في صوم نينوى والعلّة في صوم العذارى وكانت نسخة المسائل والجواب على ما قد بُيِّن في هذا الكتاب. وهذه المسألة: ما العلّة اعزّ الله ابانا الجاثليق في الصيام الثلثة الايام المعروفة بصوم نينوى واجرائها مجرى الصوم الكبير. والذي جرى في امر نينوى وامر يونس على الناموس العتيق ولسنا ابناء البيعة مأخوذين بالناموس العتيق؟ ومن امر بذلك من الاباء ومن ختم بهِ؟ فقد كان اعلمني شيخ لنا اتت عليهِ مائة سنة وكر منذ شبته (كذا) بثلثين سنة انهُ وسائر اصحابنا بكشكر كانوا لا يصومون نينوى ويأكلون اللحم فيها الخ

الجواب في ذلك: اول ما نقول انَّا اجبنا عمَّا سألت بالعربيَّة لان كتابك ورد بالعربيَّة وليقف عليه من شاجرك بلا حاجة الى واسطة مترجم بما نكتب بهِ. واماً قولك اسعدك الله انَّ ابناء البيعة ليسوا مأخوذين بالتمسك بالناموس العتيق فقد صدقت في ذلك وليس انما نصومها لان سببها ذلك السبب لان الاسم الواقع عليها مستعار والسبب الحقيقي هو ما نشرحهُ. كان اسعدك الله في زمان من الازمنة السالفة حدث في بلاد باجرمى موت جارف اتى على الاكثر في ذلك البلد في اسرع مدَّة وكان عليهم اسقف يسمَّى سبريشوع حفظ الله البيعة بصلواتهِ. فجمع رعيتهُ لاقامة الباعوث وشجّعهم وقال لهم: ان كان الله عز وجل برحمتهِ رحم اهل نينوى وكشف عنهم ما اجراه على لسان نبيهِ يونس الخ. فأحرى ان يرحمنا ونحن شعبُ المؤمنين بهِ وبمسيحهِ وروحهِ المقرونة على الحق والصدق. فسمت (سمعت) هذه الرعيَّة ما امرها بهِ الاسقف واجتمعوا وعملوا الباعوث على احسن ما يكون من عمل مثله من فطام الاطفال والاغنام ولبس المسوح مماً اثرُ ذلك باقياً (كذا) الى وقتنا هذا فدفع الله ذلك عنهم. فلماً وُلّي مار طيموثاوس الجثلقة حفظنا الله بصلواتهِ امر بعمل هذا الباعوث فاتخذوا اصحابنا منذ ذلك الوقت الى وقتنا هذا سنَّةً اجروها مجرى الفرض عليهم الخ. واسم هذا الباعوث ܨܘܡܐ ܕܒܥܘܬܐ [illegible] (اي صوم الفريضة لا صوم نينوى).

وانما جرى ذكر نينوى لما قدَّمنا ذكرهُ لمشاكلة الموعد والانذار بالآفات الحادثة وما لحق القوم اجمعين من خلاص ما تخوَّفوه . فمن تمسَّك اكل اللحم فيها الزمناه ما يجب على من تمسَّك اكل اللحم في الصوم الكبير »

وقد جاء ذكر هذا الحادث في تاريخ فطاركة كرسيّ المشرق الذي الحقهُ عمرو بن متَّى الطيرهاني في كتابهِ المعروف بالمجدل (اطلب طبعة الاب جسمندي اليسوعيّ ص ٤٣) فبعد ان ذكر في ترجمة الفطريرك يوسف (٥٥٧—٥٦٧ م) انهُ جرى في ايامهِ موتان عمَّ بلاد العراق والفرس حتى خلت بسببهِ البلاد قال في ترجمة خَلَفهِ حزقيال (٥٦٧—٥٨١) ما حرفهُ : ..... « وفي ايامهِ بطل الموت الذي كان حدوثهُ في ايام يوسف المكنَّى بالجثليق من الطاعون المسمَّى شرعوط (كلمة كلدانيَّة بمعنى الدمامل) وعلامتهُ كانت ان يظهر في كفّ الانسان ثلث نقط سود وفي حال ما يبصرها يموت حتى خلت مدن كثيرة وقرى كثيرة من الناس وبقي الذهب والفضة والامتعة بلا اصحاب وليس لها من يأخذها واكترى كسرى رجالًا لدفن الموتى وعيَّن لهم من كلّ ميّتٍ شيئًا معلومًا فحصل لهم في يوم واحد اربعمائة وخمسين دينارًا وعند المساء جلسوا ليقتسموا فماتوا على المكان وبقي المبلغ المذكور على الارض . وسبب ارتفاع الموت المذكور كان انَّ مطران باجرمي (١ واسقف نينوى (٢ اتفق رأيهما على عمل الباعوث وعرَّفا هذا الاب ذلك فاعجبهُ واستصوبهُ وكتب الى سائر الامصار الشرقيَّة ان يكونوا باسرهم متفقين على رأيٍ واحدٍ ونيَّةٍ واحدة يصومون ويصلُّون ثلاثة ايام اولها يوم الاثنين الذي قبل الصيام الكبير بعشرين يومًا ويطلبون من الله ان يرحمهم ويقبل سؤالهم مثلما قبل من اهل نينوى ويرفع الموت عن خلقهِ وان يكون صيام هذه الثلثة ايام ما بدا طول الزمان فلمَّا عملوا ذلك قبل الله منهم ورفع الموت ومن ذلك اليوم سُمّيت هذه الباعوث صوعية نينوى وتخلصوا مثلهم برفع السخط عنهم (٣ اه بحرفهِ .

١) ناحية واقعة في شرقيّ دجلة بين الزب او جبال حمرين وديالة والكرسي الاسقفي لهذه الناحية كان كرخ سلوخ وهي اليوم كركوك (راجع Chabot : Syn. Or., 668) وكان جالسًا عليهِ اذ ذاك الاسقف سبريشوع كما سبق . . .

٢) لعلَّ هذا الاسقف هو يزدبناها الموقع امضاءهُ في مجمع الجثليق حزقيال (Chabot, l. c. ,368)

٣) وقد ورد في فرض الكلدان انَّ الاسقف اذ كان يصلي الى الله سمع صوت ملاك يقول : « انقطعوا الى الصوم والصلاة فينكشف عنكم الداء »

وهذه الرواية تراها ايضاً في كتاب اسفار الاسرار لصليبا بن يوحنا الموصلي (١ معاصر عمرو بن متّى وكذلك رواها يحيى بن جرير التكريتي في كتاب الكهنوت وابن العبري (٢ وهكذا ايضاً وردت في مقدمة رتبة هذا الصوم في الطقس الكلداني وفي المكتبة الشرقيّة للسمعاني (٣ وعن هولاء كافة اخذ العلّامة المستشرق شابو وهذه عبارته: «احتلّ الطاعون الدملي ما بين النهرين وبهذه المناسبة أُقيم صوم ثلثة ايام. وهذا الصوم يدعى انقطاع النينويين ولا يزال النساطرة متمسكين به (٤» وفضلًا عن هذا كلّه قد جاء في مقدمة السنهادوس الذي التأم سنة ٥٧٢ على عهد البطريرك حزقيال (٥ ما ينبئ بمصايب واكدار مختلفة كانت تحيط كنيسة المشرق قبل ان يتبوأ حزقيال كرسي المدائن. وفيها اشارة الى سوء تدبير الجثليق يوسف (٦ ومعاملته السيئة للاساقفة ولا نشكّ انها تلمح ايضاً الى الطاعون المذكور

❖ صوم نينوى في الكنائس الشرقيّة ❖ هذا الصوم كان يعمّ كلّ الكنائس الشرقيّة الّا الملكيين وعندنا على ذلك شهادات واضحة. فانّ السريان الكاثوليك

---

١) هو كاتب من كتبة القرن الرابع عشر وكان نسطوري النحلة وتاريخ كتابه اسفار الاسرار سنة ١٣٣٢. وهو لا يزال مخطوطاً منه نسخة في كليّة كمبريج (راجع المشرق ٢: ٥٨٦) وعند الاب بطرس نصري في الموصل وعنهُ اخذ مخطوطتهُ حضرة الاب انستاس الكرملي (راجع المشرق ٨: ٥٠٥) وعند يوسف افندي غنيمة قسمٌ منهُ وهو الذي يتكلّم فيه المؤلف عن فطاركة كرسي المشرق نقلهُ عن عمرو بن متّى وزاد فيهِ بعض زيادات اهداهُ اياهُ حضرة الخوري ميخائيل شيا النائب البطريركي الكلداني في بغداد

٢) في تاريخهِ الكنسي (ج ٤ ص ٩٨)

٣) في المجلّد الثاني (ص ٤٣٥)

٤) راجع السنهودسات النسطورية (Chabot: *Syn. Or.* 370,No, 2)

٥) ان هذا المجمع هو الثامن من المجموعة التي نشرها شابو وترجمها (راجع المشرق ٢: ٥١٧) وقد حضر هذا السنهادوس ثلاثة روساء اساقفة و ١٧ اسقفاً ورتبوا تسعة وثلاثين قانوناً

٦) كان هذا الجاثليق طبيباً ولما ترمل كرسي سلوقية أقامهُ كسرى انوشروان بدون انتخاب سنة ٥٥٢م. وفي سنة ٥٥٤ انتدب الآباء واقام مجمعاً سنّ فيهِ ثلاثة وعشرين قانوناً وبعد ذلك اساء التدبير فأُسقط عن الكرسي بمساعدة الطبيب موسى النصيبيني وبقي في الكرسي ١٢ سنة حسب عمرو بن متّى و ١٠ سنة حسب ماري ولهُ من التآليف سيرة سلفائهِ البطاركة (راجع (Labourt: *Le Christianisme sous l'empire Sassanide*, 192 seqq. ; R. Duval: *Litt. Syr.* 350 ; Chabot : *Syn. Or*, 352 No. 1)

لا يزالون حتى اليوم يصومونهُ في وقتهِ . وقد اثبتهُ مجمع الشرفة في جملة الصيامات المفروضة (راجع الصفحة ٦٠ من الطبعة اللاتينيّة). لكنَّ السريان اليعاقبة كانوا يقيمون هذا الصوم على منوالين فمنهم من كان يصومهُ ثلاثة أيام كالكلدان ومنهم من يقيمهُ مدَّة جمعة فيباشرون بهِ يوم الاثنين ويصومون الى صباح السبت ولذلك يدعوهُ البعض جمعة نينوى . وقد نصَّ على ذلك ابن العبري في كتاب الشرع الكنسي (ج ١ ف ٥)

والآن في الكنيسة الكلدانيّة والسريانيّة في غضون هذه الثلاثة ايام تُتمم الصلاة والرتب الطقسيّة البهيّة من الصباح حتى منتصف النهار وتُتلى الاناشيد والميامر البليغة بمانيها من تصنيف الملفان مار افرام السرياني والشاعر المطبوع نرسي الذي بكل استحقاق يُلقَّب بعُود الروح القدس . وبعد ذلك يُحتفل بالذبيحة الالهيّة

وكذلك الموارنة فانَّهم كانوا يمارسون هذا الصوم سابقًا . قال حضرة الخوري ابراهيم حرفوش ما حرفهُ : لا ريب في ان المو[illegible] كانوا يصومون صوم نينوى لا بل انَّ الاناجيل الملقّة على الطبعة الثانية [illegible] كتاب القداس عندنا تذكر الاناجيل المعيَّنة لصيام نينوى وذلك بعد ان أُبطل في طا[illegible]تنا هذا الصوم . ومن الاتفاق الغريب انّي عثرتُ على انجيل سرياني يعقوبي في مدرسة عين ور[illegible] العامرة فُقدت منهُ اوراقهُ الاخيرة ولكنهُ اقدم من السنة ١٧٠٠ يونانيّة (١٤٨٩ م [illegible] في الهامش بخطّ احدث ذكر امور جرت في تلك السنة . ولهذا الانجيل فهرس مطوَّل للاعياد وللاناجيل التي تُقرأ فيها فمن ذلك انهُ يذكر فصلًا من متَّى وهو (لا) اعني الحادي والثلثين على حسب تقسيم النسخة السريانيّة يقرأ « مساء اثنين نينوى » وهذا الفصل هو نفسهُ المعيَّن في كتاب قدّاسنا الذي ذكرتهُ . فهذا الصوم كان مرعيًّا اذن عندنا مع باقي صيامات الكنيسة السريانيّة دون ادنى ريب . وقد ذكر الدويهي في تاريخه (ص ١٨٨) سبب ابطالهِ قال : « ان يوحنّا الاهدني الذي كان اسقفًا في أيام البطريرك يوسف الرزّي في اوائل الجيل السابع عشر لشدَّة غيرتهِ في ان تريد طائفتهُ اتحادًا مع الكنيسة الرومانيّة حلَّل اكل اللحم لرؤساء الكهنة واكل السمك وشرب الخمر في صوم الاربعين وابطل جمعة نينوى وقصَّر قطاعة الرُسل وقطاعة الميلاد ليجعل اعياد الرسل بطالة . ويدخل قبلها صيامات البيرمون فما حسن ذلك عند بولس الخامس صاحب الكرسيّ الرسولي.

وفي سنة ١٦١٠ امر بنقض كلّ هذه الامور في منشورهِ الذي ارسلهُ الى البطريرك يوحنّا خلف المذكور لأن العوائد التي كانوا متمسّكين بها هي عوائد ممدوحة اتّصلت اليهم من الآباء الاطهار · الّا انَّ الامر الذي تجري عادة الناس عليهِ يصعب ردُّهم عنهُ ولا سيَّما في الامور الواسعة » . انتهى كلام حضرة الاب حرفوش

وكان صوم نينوى ايضاً جاريًا بين الاقباط كما ترى في كتاب الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة لابن سبّاع من كتبة القرن الثالث عشر (ص ٥٤) قال: « امّا صوم ثلاثة ايام يونان فهذا تذكار واشارة الى التوبة التي اجراها اهل نينوى لرفع غضب الله وسخطهِ عنهم » . فمن هذا القول يتّضح انَّ الاقباط كانوا يصومون صوم نينوى وينسبونهُ الى ذكر توبة النينويين دون ذكر الموتان الذي رواهُ النساطرة · ولهم في كتبهم الطقسيَّة ادعية وصلوات مختصَّة بصوم نينوى (١ وعظات تتلى في كلّ يوم من الأيام الثلثة (٢ على انَّ القبط الكاثوليك قد ابطلوا هذا الصوم تخفيفاً على رعاياهم وانَّا يذكرونهُ في كلندارهم في ١٦ من شهر هتور (٣ الموافق لتشرين الثاني (٤ . هذا ولا نشكّ في ان الاحباش يصومون صوم نينوى لما بين الاقباط وبينهم من العلائق في العادات والطقوس وقد ورد ذكره في كلندارهم الذي نشرهُ الرحّالة لودلف (٥

امّا الارمن فان صوم نينوى جارٍ عندهم حتّى اليوم تراهُ مذكورًا في كلندار الغريغوريين وفي الكلندار الكاثوليكي المطبوع في البندقيَّة الذي يعربهُ كل سنة حضرة الاب سوكياس ورتبيت جريان الارمني الكاثوليكي · وهذا الصوم قديم عند الارمن وكانوا ايضاً يحتفلون بهِ خمسة أيام. وهم يدعونهُ اراتشاڤور (Առաջաւոր) ومعناهُ

---

١) اطلب كتاب الطقوس الشرقيَّة والغربيَّة (Brightman: *Liturgies eastern and western*, I, 158)

٢) راجع كتاب المواعظ المطبوع في المطبعة القبطيَّة (ص ٩٠-٩٦)

٣) اطلب كلندار الكنيستين (Nilles: *Kalend. man. utriusque Ecclesiae* II, 697)

٤) وكان عند الاقباط صوم يعرف بصوم هرقل يسبق الصوم الكبير ذكرَهُ المجمعُ القبطيّ الكاثوليكي ولم يقرّر لزومهُ (اطلب اعمال هذا المجمع اللاتينيَّة ص ٦٤) . وكذلك ورد في تاريخ سعيد بن بطريق (الجزء الثاني ص ٥-٦ من الطبعة الجديدة) ذكر صوم هرقل ويجعلهُ قبل الصوم الكبير ويزعم انَّهُ وُضع تكفيرًا لحنث هرقل بعهدهِ الى اليهود . ولم نتحقّق أيوجد بين هذا الصوم وصوم نينوى علاقةٌ ما

٥) اطلب كتابهُ: G. Ludolfi ad suam Hist. Æthiop. Commentarius (p. 386)

« بشير الصوم » او الصوم الاول أمّا اصله فيختلفون فيه فمنهم كوسى الخوريني من يزعم ان القديس غريغوريوس المنوّر حتم به على الارمن لمّا نصّرهم كاستعداد لقبول نعمة المعموديّة ومنهم من يدعوه بصوم سرجيوس لانّ في آخره اي يوم السبت عيد القديس سركيس الشهيد وقيل انّه وُضع تذكارًا لتوبة آدم عند خروجه من الجنّة . وقيل غير ذلك والارجح انّهُ صوم نينوى والدليل عليه انّهُ يُعرف اليوم بهذا الاسم عند الارمن الكاثوليك (راجع مطبوخ الارمن لسنة ١٩٠٦ ص ١٤)

فترى ممّا سبق انّ الطوائف الشرقيّة كلها عرفت صوم نينوى لا يستثنى منها الّا الروم فانّهم عدّوا هذا الصوم كبدعة وحتموا بأكل اللحم في جمعة نينوى بعد ان كانوا يأكلون فيها الجبن والبيض فقط وذلك مخالفةً للارمن ولهذا يسمّونها « جمعة المخالفين » . وقد اختلقوا الروايات الفريّة التي ينسبونها الى الارمن وليس لها ركن متين بل الأولى ان تُدعى من الترهات كقولهم مثلًا انّ سرجيوس الذي ينسب اليه هذا الصوم احد هراطقة الارمن كان لهُ كلب يسبقهُ الى كل مدينة ويبشّر بقدومه فيخرج الاهلون لاستقباله ثمّ افترس ذئب كلبهُ فدخل المدينة دون ان يدري بهِ احد ولمّا علم بما جرى لكلبه فرض بهذا الصوم

ولكن دعنا من هذه الخرافات ولنذكرنّ ما اعتادهُ نصارى العراق في هذا الصوم وهو من الغرابة بمكان وذلك انّ العامّة يصنعون الحلوى ويلتّون السويق ويبيتونهُ من مساء الاربعاء الى صباح الخميس « نذرًا للخضر » ويقولون انهُ مار الياس او مار جرجس او مار بهنام ويزعمون انهُ يأتي ليلًا وانهُ شيخ عتيق الأيام ذو لحية طويلة بيضاء يمتطي جوادًا وفي يده عصًا وانهُ مغرم بالزينة ولذلك يضعون لهُ بجانب الحلوى مشطًا ومرآة ومكحلة ولجواده باقة بقدونس . وعند الصباح يتهادون الحلوى ويتجمع المتسوّلون عند الابواب يقرعونها سحرًا طالبين منها حصّتهم . وما يعملهُ السريان والكلدان للخضر يعملهُ الارمن لمار سركيس . ولعلّهم خصّوا مار اليّا ومار سركيس بهذا الصوم لانّهُ كان يُعرف ايضًا سابقًا بصوم اليّا وبصوم مار سركيس . امّا افراحهم وعاداتهم فالارجح أنّها اشارة الى نجاة اهل نينوى من كربهم بإنذار يونان النبي والله اعلم

صواب الرأي في دعوى غليلاي

لحضرة الاب لويس شيخو اليسوعي

ليس في كتب المحدثين من اعداء الدين الكاثوليكي شكاية اشدّ واشيع من دعوى غليلاي الفلكي الشهير الذي زعم الخصوم انَّ الكنيسة الرومانيَّة اذاقتهُ امرَّ العذابات لقولهِ بان الارض هي التي تدور حول الشمس وان الشمس واقعة في مركز السيَّارات الدائرة حولها. ومع ان هذه الشكوى أبطلها العلماء الأثبات منذ نُشرت الاوراق السرّيَّة التي كانت مصونةً في خزانة الواتيكان نرى بعض كتبة بلادنا في مصر والشام ينقلونها دون تروٍّ كافٍ فيلصقون بالكنيسة بألسنة حداد وينسبون اليها الجهل ومعاكسة الترقّي العلمي كما فعل آخرًا في مجلة المنار البيروتي الشمَّاس فوتيوس ديمتري الخوري فانَّهُ روى دعوى غليلاي كما يرويها اصحاب الاغراض وصوَّر ذلك العالم كشهيد العلم وضحيَّة جهل الكنيسة. ونحن لا نتّبع هنا مزاعم الشمَّاس لكنّنا نكتفي بتلخيص ما اعلنتهُ الاوراق السرّيَّة مع ذكر شواهد منقولة عن المعاصرين من اصحاب غليلاي ومن نفس كتابات هذا الفلكي الشهير. ولا نظنُّ انَّ احدًا يرد مثل هذه الشهادات التي تزكّي الكنيسة ممَّا نُسب اليها زورًا

قد بيَّنا في مقالة سابقة ادرجناها في المشرق (٦ : ١٥ — ٢٤) ما كان للكنيسة من الفضل العميم في ترقية المعارف اجمالاً والعلوم الفلكيَّة خصوصاً ردًّا على قول بعض المجلات المصريَّة الزاعمة «بان الكنيسة لم تمنح العالَم فلكيًّا واحدًا مدَّة اثني عشر قرنًا». فاستنادًا الى ما اوردنا هنالك من الادلَّة القاطعة نقول انَّ الكنيسة لم تزل في كل اعصار تاريخها اكبر ناصر للعلوم البشريَّة. وكان للفلكيَّات في عنايتها نصيب كبير. فكيف يا تُرى يقبل العقل بان هذه الكنيسة عينها عارضت رجلاً يُعدُّ من نوابغ عصرهِ في معرفة الاجرام السمويَّة بينما كانت تعضد كثيرين من الفلكيين المبرزين منهم كهنة ورهبان كمثل كوپرنيك وكلاڤيوس وشَينر وغرمبرج ومنهم علمانيون كتَذمنستاد وكپلر. فيظهر من هذه المقدّمة وحدها انَّ الامر ليس كما يرويه اصحاب الغايات فيصيحون بالويلات على الكنيسة وهم لا يدرون من الامر غير قشرتهِ. ودونك القول الصحيح

كان قدماء اليونان ذهبوا الى اراء شتى في تعريف كرتنا الارضيَّة وموقعها بالنسبة الى الافلاك وكان اخصُّ هذه المذاهب قول ارسطو والفلاسفة المعروفين بالمشاة الذين اتّبع بطليموس الاسكندري قولهم واشاعهُ في القرن الثاني بعد المسيح فعُرف بهِ ودعي باسمهِ النظام البطليموسي . وهم يزعمون انَّ الارض ثابتة تدور حولها كلُّ السيارات مباشرةً بالقمر فعطارد فالزهرة فالشمس فالمرّيخ فالمشتري واخيراً زحل . وقد خالف افلاطون وتلامذتهُ هذا القول لا سيَّما ارسترخوس الصاميّ وكلينتوس فذهبوا الى انَّ الثابتة هي الشمس وحولها تدور السيَّارات وفي جملتها الارض التي فضلاً عن دورانها حول الشمس تدور ايضاً على محورها

وقد شاعت مذاهب أُخرى في النظام الشمسيّ الّا انَّ هذين الرأيين غلبا على بقيّة المذاهب وكان الفلكيُّون لا يأتون بحجّة مقنعة لترجيح رأي على آخر لقلّة ما في ايديهم من الآلات الرصديَّة . ومن ثمَّ لمَّا شاعت تعاليم ارسطو الفلسفيّة بين الروم والسريان والعرب والفرنج رجح ايضاً قول ذلك الفيلسوف الشهير في النظام الشمسيّ اعني ثبوت الارض ودوران الشمس حولها لا سيَّما انَّ ذلك كان يوافق نظر العين التي ترى كلَّ يوم منارة الارض سائرة في كبد السماء فتنسب اليها الحركة من طلوع وغياب دون ان يخطر على البال انَّ هذه الحركة هي لكرتنا ليس للشمس

وبقي هذا التعليم شائعاً الى ان قام كوبرنيك (١٤٧٣—١٥٤٣) . وما ادراك من كوبرنيك ؟ هو كاهن كاثوليكي من بلاد بولونية كان يخدم النفوس بغيرة في مدينة تورن (Thorn) وكان في اوقات الفراغ يدرس الفلكيَّات فبلغت بهِ الحاجة الى ان تحقَّق انَّ النظام الشمسيّ لا يوافق تعليم بطليموس ومن ثمَّ اخذ يعلّم انَّ الشمس هي في مركز العالم وانَّ السيارات الأُخَر وفي جملتها الارض تدور حولها . وهذا التعليم مع انَّهُ كان في ذلك العصر غريباً وقاومهُ كثيرون من العلماء وجد في الكنيسة الرومانية اقوى أنصارهِ فكان الكردينال نيقولا دي كوزا قال بهِ قبل ذلك كما يدلُّ عليهِ بعض تآليفهِ ثمَّ دافع عن هذا المذهب المدعو جان ڤدمنستاد امام البابا اقليميس السابع والكرادلة حاشيتهِ فسُرَّ الحبر الاعظم بخطابهِ واثنى عليهِ وجازاهُ بنسخة ثمينة من مخطوطات مكتبتهِ . وكان الكردينال شمبرغ من الرهبانيَّة الدومنيكية يجلّ كوبرنيك وينشّطهُ فاقنعهُ بنشر كتابهِ المعنون « في حركات الافلاك العلويَّة » ففعل وقدَّم كتابهُ للبابا بولس الثالث

فقدَّر البابا عملهُ وشملهُ بألطافهِ الى موتهِ (١ . وكان ممَّن اقتنع بمذهب كوپرنيك في البلاط البابوي السيّد كلكانيني رئيس الكتَّاب الرسوليين فصار يعلّم بقول كوپرنيك جهارًا وينشر هذا التعليم في انحاء ايطالية وقام بعد كوپرنيك تلميذهُ كپلير وحذا حذو استاذهِ في تعليمهِ عن دوران السيارات حول الشمس الثابتة في مركزها ووجد ايضا انصارًا بين رجال الاكليروس الكاثوليكي ولا سيَّما في البلاط الروماني . وقد جرى كل ذلك قبل ظهور غليلاي . فليت شعري كيف يقرّع الخصوم الكنيسة الرومانية بالجهل او ينسب اليها اضطهاد العلماء

فهيَّا بنا الآن نفحص عن امر غليلاي منفردًا . ولد غليلاي في پيزة سنة ١٥٦٤ وبعد دروسهِ الأولى قصد الترهُّب ولبس مدَّةً الاسكيم الرهباني لكنَّهُ لم يثبت في دعوتهِ فعاد الى العالم وانقطع الى درس الطبّ والعلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة ثمَّ قدم رومية سنة ١٥٨٧ وتعرَّف باليسوعي والفلكي الشهير الاب كلاڤيوس الذي وجد فيهِ شابًا ذكيًا متوقّد الفهم فحرَّضهُ على مواصلة دروسهِ ولمَّا بلغ خبرهُ الكردينال « دال مُنتي » اوصى بهِ غرندوق تُسكانة فجعلهُ معلّمًا للرياضيَّات في كليَّة پيزة ثمَّ تقلَّب في مناصب أخرى شريفة في پادوا والبندقيَّة . وكان الكردينال دال منتي لا يزال يكاتب غليلاي ويثني عليهِ حتى نال لهُ امتيازات جديدة من الغرندوق وارسل لهُ صورة ثمينة كان البابا بولس الخامس علَّق عليها غفارين

وكان غليلاي ينصبُّ على درس الافلاك انصبابًا عظيمًا فتتبَّع آثار كوپرنيك وكپلير في قولهما عن دوران الارض وثبوت الشمس ولم يلبث هو ايضًا ان يكتشف الاكتشافات الخطيرة . منها تدوينهُ لنواميس سقوط الاجرام ووضعهُ لبيكار النسبة واختراعهُ لمقياس الحرارة واتخاذهُ النظَّارة الهولنديَّة لرصد الافلاك وهي النظَّارة التي دُعيت بعدئذٍ باسمهِ نظَّارة غليلاي وبها اكتشف اقمار المشتري ووجوه الزهرة

وكان علماء زمان غليلاي يتفاخرون بمكاتبتهِ ويتباهون بصداقتهِ وكان في مقدمتهم

(١) ومن ثمَّ لا صحة لما كتب كرنيليوس فان ديك في كتابهِ اصول الهيئة (ص ٧٧) حيث قال : « انَّ مجمع فحص كتب رومية حكم على كوپرنيكوس بالهرطقة ونهى عن اشهار كتابهِ وعن قراءتهِ ولو طالت يدهم لحرقوا صاحبهُ او اضطهدوهُ كما اضطهدوا الفيلسوف غليليو في شيخوختهِ » فانظر يا صاح كيف الهوى يعمي ويصمّ

كرادلة مثل بريريني وكُنتي واساقفة كديني وتشامپولي وپيكولوميني وسيزاريني . وقد اشتهر بين اصدقائهِ يسوعيون تشهد تآليفهم حتى اليوم بطول باعهم لاسيَّما الآباء كلافيوس وغرمبرجر وغولدين وشينر وغريمالدي وريتشيولي . وفي كلّ ذلك دليل باهر على انَّ الكنيسة لم تضمر شرًّا لغليلاي او تجعل للعلم الصادق حدودًا

وكان غليلاي مع سعة علمهِ محبًّا للجاه يفتخر بما نالهُ من الامتيازات فحرَّك ذلك في قلوب زملائهِ اساتذة الكليَّات الايطاليَّة عوامل الحسد فاخذوا يناصبونهُ ويعاكسونهُ فاجابهم غليلاي بالمثل . فاشتدَّ الخصام بينهُ وبينهم لا سيَّما بعد نشرهِ كتابهُ المعنون « بالبشير الفلكي » سنة ١٦١٠ . فكان اساتذة بيزة وپادوا ينقبون الكتاب لينتقدوهُ ويزيّفوا تعاليمهُ مستندين على مبادئ ارسطاطاليس وبعض اقوال الكتاب المقدَّس . فندَّد غليلاي بارسطو ونقض آراءهُ متهكمًا . امَّا الكتاب المقدَّس فانَّهُ جعل يختار منهُ بعض الآيات ويفسّرها حسب مذهبهِ في ثبوت الشمس ودوران الارض حولها . لكنَّ دفاعهُ عن نفسهِ لم يُسكت خصومهُ فلم يرَ وجهًا لإفحامهم الّا ان يذهب الى رومية حيث كان لهُ عدد كبير من الاصدقاء كما مرَّ

دخل غليلاي رومة على الرُّحب والسَّعة في ربيع سنة ١٦١١ فاستقبلهُ البابا بولس الخامس بلطف ابوي ولم يشأ ان يكلّمهُ جاثيًا على ركبتيهِ كمألوف العادة وكذلك ترفَّق بهِ الكرادلة فدعاهُ الكردينال فرنيز الى قصرهِ واجلسهُ على مائدتهِ واحتفى بهِ الكردينال بربريني الذي خلف بعدئذٍ بولس الخامس على كرسي هامة الرسل . وقد اقرَّ غليلاي نفسهُ بذلك في احدى رسائله قال: « قد انس بي هنا كثيرون من الكرادلة والسادة والامراء وقد عرضت عليهم آرائي (الفلكيَّة) فاستصوبوها » . لكنَّ اصدقاءهُ المتعدّدين الذين كانوا معجبين بعلمهِ كانوا يشيرون عليهِ بان يواصل ابحاثهُ الفلكيَّة دون ان يسندها الى الكتاب المقدَّس لأنَّ شرح الاسفار الالهيَّة يخصُّ اللاهوتيين ليس العالمين

ثمَّ رجع غليلاي الى وطنهِ فرحًا ظافرًا وعاد الى دروسهِ وتآليفهِ بيد أنَّهُ نسي مشورة اصحابهِ وتعرَّض ثانيةً لتفسير الكتاب المقدَّس بدلًا من أن يؤيد قولهُ بالادلَّة الطبيعيَّة الكافية لبيان رأيهِ في ثبوت الشمس ودوران الارض . فانتهز اعداؤهُ وانصار فلسفة ارسطو هذه الفرصة ليسعوا بهِ عند المجمع المقدَّس . فانثنى غليلاي راجعًا الى رومية سنة ١٦١٥ وزار كثيرين من الكرادلة والعلماء اليسوعيين وغيرهم وكان حيثما

يجلّ يكرّم ويبجّل . وممّن رحّب به الكردينال بلرمينوس اليسوعي الطائر الشهرة الذي اثنى على علمهِ لكنّهُ الحّ عليهِ بان « انشر تعليمك واثبتهُ بالادلَّة العقليَّة كرأي مرجّح بحذار حذار من مسّ الكتاب المقدَّس فان اكتفيت بذلك لا خوف عليك من المجمع المقدَّس » . والدليل على ذلك انَّ في تلك السنة عينها طُبع في نابولي باذن الرؤساء كتاب للاب الكرملي فسكاريني يرجّح فيهِ مذهب كوبرنيك ولم يعارضهُ احد

ألا ان غليلاي لم يعرف يصون لسانهُ وتحرّى ثانيةً في رومية نفسها ان يسند قولهُ الى الكتاب المقدَّس ويفنّد رأي تبعة ارسطو بشهادات كتابيَّة فصار تعنُّتهُ هذا وبالاً عليهِ . ولنا في هذا الامر شاهد عيان وهو سنير غرندوق تسكانة وصديق غليلاي الذي اعلم سيّدهُ الامير بما جرى فكتب لهُ ما تعريبهُ : « انَّ غليلاي يتجاوز كلَّ حكمة وفطنة فلا يزال يلحّ على الاب الاقدس وعلى الكرادلة بان يعلنوا جهاراً بان مذهب كوبرنيك مبنيّ على الاسفار المنزلة وقد أمر البابا فوراً من لجاجهِ بان يجري فحص الامر في مجمع خصوصي »

فالتأمت لجنة الكرادلة سنة ١٦١٦ وبعد الفحص قرَّ رأيهم « بانَّ المذهب الكوبرنكي في ثبوت الشمس بدعة لا توافق مضمون الكتاب المقدَّس وتناقض الفلسفة » واصدروا حكمهم في ذلك وهذا الحكم كما لا يخفى ليس بصحيح الّا انَّ احوال ذلك العصر وشيوع كتب ارسطو في المدارس مع ما اظهرهُ غليلاي من التعنُّت في شرح الكتب المقدَّسة هي الحجَّة التي تعذر اصحاب تلك اللجنة . وعلى كلّ حال فانهُ لا يخلّ بالعصمة البابويَّة لانَّ احكام الجامع الرومانيَّة لا تقع في جملة المعتقدات المعصومة من الغلط التي تختصّ بالحبر الروماني اذ يعلّم الكنيسة جمعاء . وانَّما كان ينبغي لغليلاي بان يقبلهُ مطيعاً وهكذا فعل بعد ما عرضهُ عليهِ بلرمين دون اكراه ولا مصادرة البتَّة

وبعد رضى غليلاي بحكم مجمع الكرادلة وتوقيع اسمهِ على صكّهِ انتهت دعواهُ ولم يُحرَم كتاب من كتُبهِ واستقبلهُ البابا في بلاطهِ مدَّة ثلاثة ارباع الساعة وكلَّمهُ بلطف كما روى في احدى رسائلهِ وطمّنهُ من قبل اخصامهِ مشترطاً عليهِ الفطنة في مدافعة آرائهِ العلميَّة . ولما شاع في رومية انَّ المجمع المقدَّس الزمهُ بنقض تعاليمهِ كذَّب الكردينال بلرمينوس هذه الاشاعة بكتابة رسميَّة سلّمها لايدي غليلاي في ٢٦ آب سنة ١٦١٦ يقول فيها : « انَّ غليلاي لم يجحد امامنا او امام احد غيرنا في

رومية شيئاً من آرائهِ او تعاليمهِ وكذلك لم يُفرَض عليهِ قانون عقابيّ » . فمن هذا القول يلوح كذب الذين لا يزالون يردّدون انَّ المجمع المقدَّس تشدَّد على غليلاي وعاملهُ بالعنف والضرب . وغاية ما طُلب منهُ أنْ يدافع عن قولهِ كرأي علميّ ليس كقضيَّة راهنة مقرَّرة دون ريبٍ ويعدل في احتجاجهِ عن شرح الكتاب المقدَّس

وبعد أن ودَّع غليلاي الكردينال ذال منتي وبقيَّة اصحابهِ عاد مكرَّماً الى فلورنسة وانعكف على دروسهِ المعتادة الى وفاة البابا بولس الخامس . فقام من بعدهِ على كرسيّ رومية الكردينال بربريني صديق غليلاي وتسمَّى باسم اوربانوس الثامن وكان ذلك سنة ١٦٢٣ وفيها طبع غليلاي في احدى مطابع رومية كتابهُ في الموازين وقدَّمهُ لحاجب البابا السيّد سيزاريني الذي أطلع عليهِ البابا فاثنى على كتابهِ واشاد بمعارفهِ . وفي السنة التالية زار غليلاي الاب الاقدس فأكرمهُ اكراماً فائقاً وبلَّغهُ أنَّهُ لو كان الامر منوطاً بهِ لَما سمح للمجمع المقدَّس بابراز الحكم الذي اصدرهُ عليهِ سنة ١٦١٦

فاطمأنَّ غليلاي وانقطع الى تأليف كتابهِ « في نظام العوالم » فانتهى منهُ سنة ١٦٣٠ وكان الكتاب على شكل محاورة بين ثلاثة رجال يمثّل احدهم القائلين بقول ارسطو ومعلّميّ ذلك الزمان فجعل في فمهِ كلاماً هزليًّا من شأنهِ ان يجرح حاسيات كثيرين من خصومهِ ونسي ما اخذ بهِ على نفسهِ بان لا يتعرَّض للشروح الكتابيَّة ويكتفي لاسناد رأيهِ بالبراهين العلميَّة المحضة فاجتمع كلّ خصومهِ وردُّوا على اقوالهِ وكتبوا الى اصحابهم في رومية ليطلبوا فحص هذا الكتاب الجديد فتأسَّف البابا اوربانوس على ما فعل غليلاي وامر مجمع التفتيش بفحص كتابهِ فوجدهُ الفاحصون لم يَفِ بوعدهِ السابق وأُرسل اليهِ الامر بان يحضر الى رومية ليدافع عن نفسهِ امام ديوان التفتيش

فجاء الى عاصمة الكثلكة في ١٣ شباط سنة ١٦٣٣ واستُقبل هذه المرَّة ايضاً بكل حفاوة واكرام رغماً عمَّا اتاهُ من مخالفة حكم المجمع وأُنزل بتجلَّة في بيت احد وكلاء الديوان وكان لهُ هناك ثلاث غُرَف مختصَّة بهِ ويُرسل اليهِ اكلهُ من بيت سفير تسكانة وكان لهُ خادم يخدمهُ وبعد جمعة سمحوا لهُ ان يسكن في قصر السفير. وممَّا كان يقولهُ غليلاي اذ ذاك لاحد اصحابهِ « اني لا اجد هنا ما تهدَّدني بهِ بعض الاعداء من سوء المعاملة بل هذه مجاملة لا محاكمة » وكان اصحابهُ يزورونهُ دون مانع وكان اعضاء

ديوان التفتيش امروهُ بان يكتب رسالة ليدافع بها عمَّا نُسب اليهِ من مخالفة الحكم
وفي شهر نيسان دُعي غليلاي الى الديوان ليقدم دفاعهُ فوجدوهُ كمألوف عادتهِ يحتج لا بالبراهين العلمية بل بالآيات الكتابية . ولنا على ذلك شهادة احد مؤرخي البروتستانت من معاصريهِ اسمهُ ماله دو بان (Mallet du Pan) قال: «انَّ احتجاج غليلاي عن نفسهِ باقٍ بين مخطوطاتهِ وهو اشبه باللَّغط ترى صاحبهُ بدلًا من ان يُثبت دوران الارض امام ديوان التفتيش بالادلة الصوابية يتَّسع في شرح سفر أيوب ومعجزة يشوع بن نون عند توقيفهِ الشمس» . وكذلك يشهد المؤرخ البروتستاني بروستر (Brewster) على «انَّ احتجاج غليلاي عن نفسهِ كان ضعيفاً جداً فأتى بحجج فارغة كانت اولى بان تزيد في ذنبهِ من ان تخففهُ»

فكانت نتيجة هذه الدعوى أنَّ الديوان طلب منهُ ثانية أن يجحد قولهُ بأن مذهبهُ العلمي يستند على الكتاب المقدس ثمَّ حكموا عليهِ بان يبقى في العزلة في قصر امير توسكانة صديقهِ التي جُعلت كحبسهِ ان — كان يجوز ان يدعى هذا حبساً (١) . ثمَّ سُمح لهُ بعد ١٢ يوماً ان يذهب الى مدينة سيانة فيعتزل عند الكردينال پيكولوميني محاميهِ . فخرج من رومية وقطع ماشياً اربعة اميال كما اخبر هو وفي ذلك دليل باهر على انهُ لم يُعاقب بتنكيل او ضرب او مصادرة . وبعد ثلاثة اشهر رخَّص لهُ البابا ان يذهب الى بستانهِ في ارستري . وصنَّف هناك كتباً أُخرى علمية منها محاورة على العلوم الجديدة قدَّمها سنة ١٦٣٦ لسفير فرنسة الكنت دي نوايل . وفي سنة ١٦٣٧ اخذ بصرهُ يضعف الى أن فقدهُ تماماً سنة ١٦٣٨ . وكان اصدقاؤهُ وفي جملتهم عدَّة رهبان وكهنة يتردَّدون اليهِ ويأخذون عنهُ العلوم ويعزُّونهُ في مصابهِ . وقد قضى الثلاث السنين الاخيرة باعمال البرّ والتقى صار بها قدوة صالحة لكل من يشاهدهُ . ثمَّ أفلج في آخر عمرهِ ومات محموماً في ٨ ك ٢ سنة ١٦٤٢ . ولم يُفقد شيء من كتاباتهِ التي ادَّعى البعض انَّ المجمع احرقها فانها وُجدت بتمامها سنة ١٨٤٢ ونشرها بالطبع المسيو ألبري سنة ١٨٤٦

١) وممَّا كتبهُ اذ ذاك ويدلّ على انَّ المجمع المقدَّس لم يحكم عليهِ بمصادرة فقرة من كتاب لاحد اصدقائهِ قال فيها: «اني لم أحصل على عافية اتمّ من عافيتي منذ حضرت الى رومية وقد بقيت خمسة اشهر معتزلًا في دار سفير تسكانة مشمولًا بكل لطف عائلتهِ . . . وبعد ان اصدر المجمع الحكم عليَّ قُضي عليَّ بالحبس على اختيار الحبر الاعظم فعيَّن لي قداستهُ قصر الترندوق وحديقتهُ»

هذه خلاصة تلك الدعوى الشهيرة التي اكتشف دومنيك برتي (Berti) اوراقها وقراراتها بتمامها ونشر كلّ تفاصيلها بالطبع سنة ١٨٧٦. وليس في كل هذه الدعوى اثر لما اشاعهُ اعداء الدين في أنّ غليلاي ذهب شهيداً للعلم على يد رجال الكنيسة. ومن ثمَّ لنا الامل انَّ اهل الشرق لا يعودون الى مثل هذه التهم الباطلة التي ينقلونها عن الكتبة الاوربيين دون تروٍّ. ولو اردنا لأمكنّا ان نبيّن أنّ زعماء البروتستانت والاكليروس الروسي ناقضوا تعليم غليلاي اكثر من الكنيسة الرومانية. وفي ما سبق كفاية والسلام

مطبوعات شرقية جديدة

LEIPZIGER SEMITISCHE STUDIEN, herausgegeben von **A. Fischer** und **H. Zimmern**, 1er Bd., 1905, *Hinrichs*, 8°

دروس سامية لبعض اساتذة ليبسك

في هذا الكتاب ستّة دروس مطوّلة نشرها المستشرقون الالمانيون في ليبسك تحت نظارة استاذ العربيَّة فيشر ومعلم اللغة الاشوريَّة تسيمرن. فالدرس الاوَّل (ص ٨٠) مدارهُ على رقية الكؤوس الشائعة عند البابليين فانَّ مؤلفهُ العلّامة هنغر (J. Hunger) وجد في هذا المعنى قطعتين باللسان الاشوري تاريخهما من عهد حمّورابي الذي يرجّح كونهُ « امرافل » معاصر ابراهيم الخليل (تكوين ١٤ : ١) فنشرهما بالطبع واضاف اعلامـات جديدة الى ما سبق فأبرزهُ من قبلهِ العالمان لوزمان وبواسيه (A. Boissier) — والدرس الثاني (ص ١٠٠) بابلي ايضاً للاثري داشس (S. Daiches) يبحث عن شرائع قدماء الكلدان في ايام حمورابي المذكور استناداً الى الآثار الاشوريَّة المكتشفة حديثاً مع المقابلة بينها وبين شريعة ذاك الملك الشهير التي وجدها في شوشن العلامة دي مرغان — والدرس الثالث (ص١١+٦٤) عربي تولّاهُ الدكتور بروبستر (Edg. Pröbster) ومضمونهُ اثر قديم وهو كتاب المقتضب (ويروى المقتضب) في اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين لابن جنّي احد مشاهير النحويين نصَّ فيهِ على مـا ورد في كتب الادباء والشعراء من النوادر في هذا الباب فنشير بقراءتهِ على من يحصرون اللغة في معلوماتهم القاصرة المبنيَّة على اقاويل بعض

المحدثين . ولهذا الكتاب مقدَّمة واسعة في ترجمة ابن جني وفي تعريف مقامهِ بين اهل اللغة اجاد فيها كاتبها — ويلي هذا الدرس درسان آخران للدكتور ستمه (Dr H. Stumme) في اللغة المالطيَّة ضَمَّن الاوَّل (ص ١٢٤) منتخبات نثرية وشعريَّة مع عدَّة ملحوظات في لهجة اهل مالطة ولفظهم بالحرف الاوربيّ . اما الثاني (ص ١١٨) فاودعهُ قطعاً شتَّى نقلها من اللغة المالطية الى الالمانية بينها الحكايات والروايات الخرافية والامثال والالغاز وقدَّم على ذلك بحثاً في آثار اللغة المذكورة وكتبتها ذكر منهم الاب ماكَّري اليسوعي رئيس مدرسة گوزو الاكليريكية ومؤلف عدَّة كتب مالطية . أمَّا رأي الدكتور في اصل اللغة المذكورة فلا يخالف رأينا في المشرق (٨ : ٧١٣ —٧١٥) . والدرسان كلاهما ينوّهان بفضل كاتبهما الذي عُرف بتآليفهِ في اللهجات العامية لاسيَّما لهجات المغرب وهو يُعدُّ الآن غراماطيقاً للغة المالطية — والدرس السادس والاخير (ص ٦٠) في تعريف أحد آلهة البابليين الاله نزغال او اله الشمس الوقَّادة للدكتور بولنروخر (Dr Böllenrücher) . وهو أحسن ما كُتب حتى اليوم في هذا الصدد والمؤلف يؤيد اقاويلهُ بعدَّة نصوص بابلية قديمة محتواها صلوات وتسابيح للاله نزغال — فمَّا سبق ترى ما يشتملهُ هذا المجموع من المقالات المتبرة والآثار الشرقية القديمة . والقسم الثاني من هذا التأليف ممثل للطبع وردتنا منهُ لائحة تدلُّ على انَّ الشقيق اهلٌ بكرهِ . وتثني على محلّ هنركس في ليبسيك الذي ينشر كتباً جليلة كهذا س . ر

CHR. BLINKENBERG: Archaeologische Studien, *Kopenhagen u. Leipzig*, 1904, 8°, 128 pp. avec 4 fig. et 4 pl. phot.

دروس اثريَّة

يمتاز هذا المجموع الاثري بتوفُّر موادهِ وبغزارة معلومات مؤلفهِ وذلك ممَّا يلوح في الابحاث التي يتحرَّاها ويفكُّ معضلاتها . منها بحثهُ في طور الطَّرآن في بلاد اليونان وفي الرمي بالقوس على عهد عوليس وفي بعض الكتابات المحفورة . واجود من ذلك درسهُ المطوَّل لعبادة الاله سبازيوس وشرح العاديَّات المنوطة بهِ وكان هذا الاله معبوداً في بلاد فريجية وفي عبادتهِ ارجاس فظيعة . ومن جملة الآثار الباقية من ذكرهِ عدد وافرٌ من الايدي المعدنيَّة عليها شارات هذا الاله الغريب كالصنوبر والحيَّة فضلًا عن اسمهِ

المكتوب على كنه وكلها مصونة في المتاحف الكبرى · ومن خواص هذه الايدي انها تمثل الاصابع على هيئة من يمنح البركة بفتح الاصابع الثلثة الاولى وضمّ الخنصر والبنصر · وكان العلماء يظنّون حتى الآن انّ هذه الآثار قد اصطنعها المتعبّدون للالـه سبازيوس شكرًا لهُ عمَّا نالوهُ من الشفـاء كما هي العادة في ايامنا أنّ من برئ من مرض في رجله او يدهِ او عينهِ يقدّم في الكنائس شبه العضو الموجوع · لكنّ المسيو بلنكنبرغ قد اثبت انّ لهذه الايدي معنًى آخر وقد اصطنعهـا المتعبّدون للاله لمادّة يدهِ واستمدادًا لبركتهِ · على انّ تقدمـة هذه الايدي النذوريّة لم تكن منحصرةً في عبادة الاله سبازيوس وانما وجد منها عدد وافر في سوريّة اهداها القدماء لآلهتهـم منها يدٌ غاية في الغرابة اكتشفهـا المسيو دوسو حديثًا رُسم في كفّها المشتري معبود بعلبك (Rev. Arch., 1905, p. 161-168, pl. III) ولعلّ من هذا الصنف آثارًا أخرى في المجموعات الخاصّة نشير على اصحابها بنشرها ل · ج

I. ELEMENTARY ARABIC: A Grammar by Frederic du Pré Thornton, edited by Reynold A. Nicholson, 8° XVIII-223 p., 1905, *Cambridge, at the University Press.*

II D^r M. GRUENERT: Arabische Lesestücke I-II, Text und Glossar, *Prag, G. Neugebauer's Verlag*, 1903-1905, 4° pp. 292

١ الكتاب الاوّل مفتتح تآليف مدرسيّة لدرس العربيّة يُلحقهُ مؤلفهُ الانكليزي قريبًا بثلاثة اجزاء أُخرى يودعها منتخبات ادبيّة ويختمهـا بمعجم لمفردات المجموع · امّا الجزء الاوّل فقد ضمّنهُ اصول اللغة العربيّة اختصرها بابًا بابًا عن تآليف المستشرق كسباري وعن ترجمتهِ الانكليزيّة للعلامة ريت (Wright) بحيث يستطيع الدارسون ان يأخذوا من صرف العربيّة ونحوهـا لبابها دون ان يتيهوا في مفاوزها المتّسعة وتفاصيلها الدقيقة مع استطاعتهم اذا احبّوا ان يعودوا الى الاصل · وبين هذا المختصر والتأليف الاصلي موافقة في الإعداد · فترى من ثمّ انّ لهذا التراماطيق غايةً عمليّة وعلى رأينا انّ فائدتهُ كانت اوسع لو عرف صاحبهُ ان يضمّ بعض القواعد والاصول المتشابهة الى بعضها لتظهر علاقتها بالمقابلة ولو شاء لوجد ذلك في الحواشي والتذييلات التي علّقها ريت على الطبعات الاخيرة · وعلى كلّ حال تثني على هذا المختصر ونحضّ الانكليز الذين في الشرق على اقتنائهِ الاب موريس بويج

٢ امّا الكتاب الثاني فقد وضعهُ الدكتور الفاضل غرونرت في قسمين وهو عبارة عن مقاطيع نثريَّة انتخبها من التآليف العربيَّة وضبطها بالشكل الكامل وألحقها بمعجم مطوَّل في الالمانيَّة . والمقاطيع المذكورة منقول بعضها عن الكتاب المقدَّس عن النسخة المطبوعة في أكسفرد سنة ١٨٧١ من اسفار العهدين العتيق والحديث وبعضها منقول عن كتب ادباء العرب بينها امثال وقطع تاريخيَّة وفصول جغرافيَّة وحكايات وغير ذلك . امَّا المعجم فكافٍ لشرح المنتخبات مع اشارة الى معنى الكلمة الخاص على اختلاف موقعها وهذا التأليف مطبوع على الحجر طبعًا نظيفًا لا نشكُّ انَّ طلبة اللغة العربيَّة في المانية يستفيدون منهُ فوائد جمَّة لاتقان درس لغتنا العزيزة . وعمَّا قليل ان شاء الله يتحفنا المؤلف بالمنتخبات الشعريَّة الباقية لتمام عمله ل . ش

G. TOUZARD : Grammaire hébraique abrégée, *Paris, Lecoffre*, 1905, 8° XVII-295+40

غراماطيق اللغة العبرانيَّة

أشعر مؤلف هذا الكتاب في مقدمته بما حداه الى تأليفه فغايتهُ أن ينهج الطريق لدارسيّ العبرانيَّة فيمكّنهم من فهم النصوص الكتابيَّة السهلة ويقرّب اليهم مقابلة اللغة العبرانيَّة واللغات الساميَّة مع تعريف الاساليب التدريسيَّة الشائعة اليوم في هذا الباب . وتزيد على ذلك انَّ المؤلف ادرك غايتهُ واحسن في كتابهِ كلَّ الاحسان فانَّهُ ليس فقط ضمَّن كتابهُ قواعد العبرانيَّة بل عرضها على طريقة مستحدثة تبيّن ما بين قوانينها واصول بقيَّة اللغات الساميَّة من التجانس والتشبُّه في تركيب الالفاظ وتصريفها وضروب تعابيرها بحيث يستطيع الدارس بهذه المقابلة ادراك خواص تلك اللغات وقرابتها مع بعضها . وهذا كلُّهُ تراهُ في القسم الاوَّل من الكتاب . امَّا القسم الثاني فانَّهُ لم يخترع شيئًا جديدًا لكنَّهُ ادرج في كتابهِ لُباب التآليف الموسَّعة التي سبقهُ اليها العلماء الالمانيُّون مثل كوتش (Kautsch) وكونيغ (Koenig) وعرض ذلك بلغة افرنسية غاية في الوضوح تدلُّ على عادتهِ الطويلة في التعليم . ولعلَّ البعض يجدون انَّ القسم الثاني احرى بالمعلّمين منهُ بالتلامذة لكنَّ المؤلف اراد ان يكون القسم الاوَّل كرقاة تؤدي بالدارسين الى ما هو ادقّ واسمى اعني شرح النصوص القديمة من التوراة

وفي الختام نحن نتمنّى لهذا الكتاب كلّ الرواج الذي يستحقّهُ فيقبل عليهِ كلّ من اراد مطالعة الاسفار الكريمة

الاب ي · نيران

G. DALMAN: **Grammatik des jüdisch-palaestinischen Aramaeisch,** nach den idiomen des palaestinischen Talmud, des Onkelostargum und Prophetentargum und der Jerusalemischen Targume. *Hinrichs,* 1905 2^te^ *Aufl.* 8° XVI-419 pp.

غراماطيق اللغة العبرانية الآرامية

للالمانية كما يعرف القرّاء مكتب علميّ في اورشليم منذ سنين قليلة يرأسهُ احد علمائها المعدودين المسيو دَلمان الذي اشتهر منذ زمن طويل بابحاثهِ في اللغة الآراميّة وقد زادهُ مجيئهُ الى القدس الشريف اقبالًا على درس اللغة الشائعة بين اليهود بعد رجوعهم من جلاء بابل لتعريف خواصّها وتحديد قواعدها · والغراماطيق الذي نحن بصددهِ ثمرة اتعابهِ ودروسهِ لهذه اللغة · كان طبعهُ اوّلًا سنة ١٨٩٤ ثمّ شفعهُ بعد سنتين بطرائف انتخبها من آثار تلك اللغة (Aramaeische Dialektproben) · وكان اوّل من اتّسع في مثل هذه الدروس · ولم يزل منذ ذاك يعمل النظر في تأليفهِ وينقّحهُ ويغنيهِ بفوائد جديدة بناء على انتقاد العلماء حتى اعاد اليوم طبعهُ وجعلهُ طرفةً في بابهِ · وما يزيد هذا الكتاب شأنًا انّ مدارهُ على اللسان الذي تكلّم بهِ السيّد المسيح في حياتهِ · على انّ هذا اللسان نفسهُ ليس منحصرًا في لهجة واحدة بل ورد على لهجات مختلفة · ولبيان ذلك صدّر المؤلف كتابهُ بمقدّمة طويلة لا تقلّ عن ٥١ صفحة عرّف فيها هذه اللهجات وميّزها وبذلك مهّد الطريق لدرس اصولها في الغراماطيق الذي ألحقهُ بالمقدّمة · ومن يقلّب صفحات هذا الكتاب يأخذهُ العجب من كثرة موادهِ ووفرة مضامينهِ والتآليف المتعدّدة التي راجعها لتصنيفه · وتراهُ في ايضاح اصول هذه اللغة لا يدع مشكلًا الّا فكّ رمزهُ ولعلّهُ تجاوز الحدود في بيان دقائقها العديدة وقد سرّنا انّ المؤلف يوافق المسيو لِدزبرسكي في رأيهِ عن كتابة « كفركنّا » ولهجتها الجليليّة · وهذه الكتابة المدوّنة بالفسيفساء اكتشفها حضرة الآباء الفرنسيسيّون فاطلعوا عليها الاب لامنس ثمّ عرضها على المسيو كلرمون غانّو الذي احسن قراءتها